علي مبارك

(حياته ومآثره)

قصة كادح أعلى بالعلم قدر الكادحين ...
قصة محروم أجرى المعرفة سائغة للمحرومين ...
قصة مجد وكرامة ... فيها هدى وفيها أسوة حسنة ...

تأليف

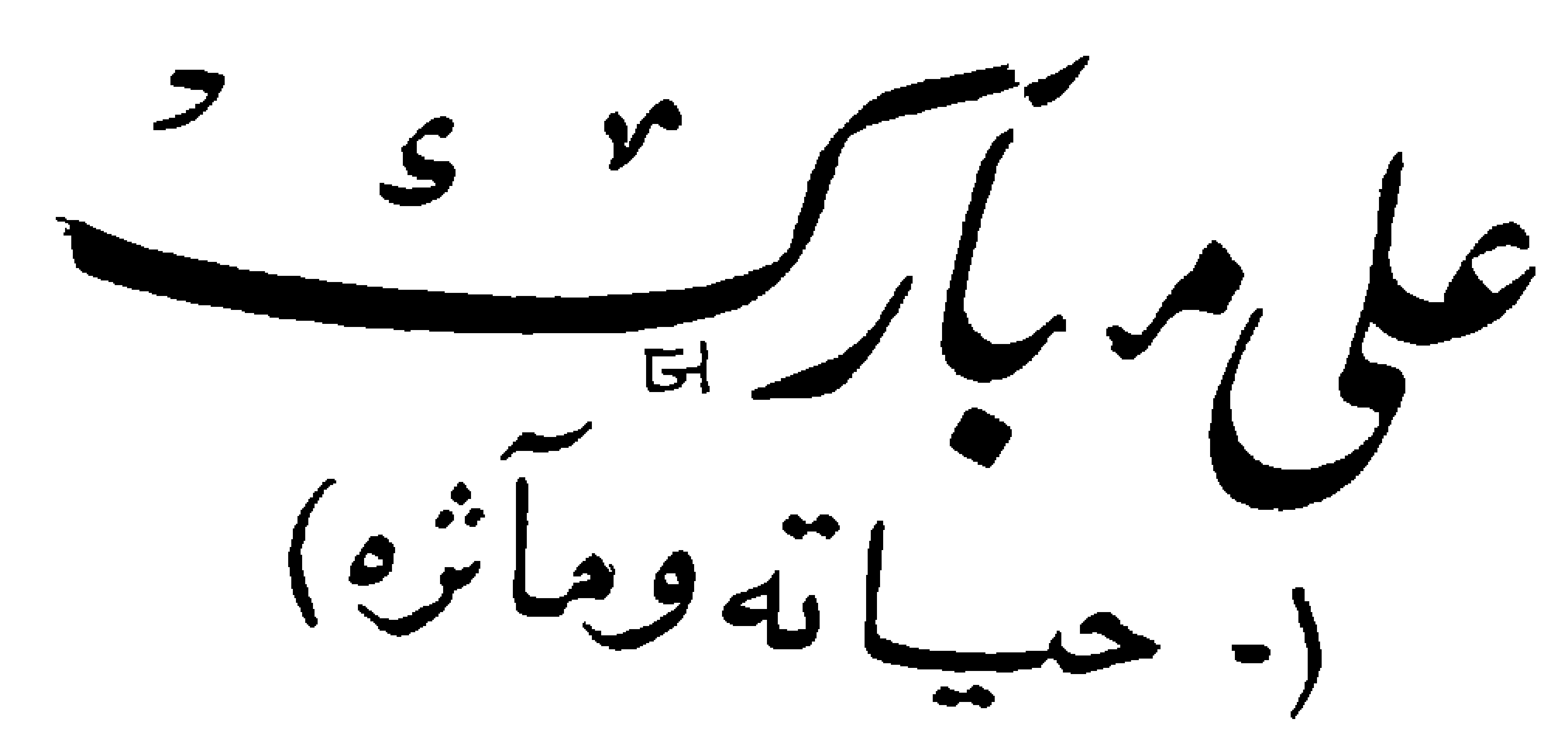
محمد عبد الكريم

تقديم

خالد محيي الدين

مطبعة الرسالة

شارع [illegible] ٣ عابدين



قصة كادح أعلى بالعلم قدر الـكادحين ...
قصة محروم أجرى المعرفة سائغة للمحرومين ...
قصة مجد وكرامة ... فيها هدى وفيها أسوة حسنة ...

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

تأليف

محمد عبد الكريم

دكتور
أيمن توفيق
أستاذ الجراحة

تقديم
خالد محيي الدين

مطبعة الرسالة
شارع [illegible] ٣ عابدين

الاهـــــداء

إلى كل كادح طموح . . . .

نهدى كتابا أودعناه قصة مجد وكرامة . فيها أسوة حسنة للطالبين وعزاء وأمل للمحرومين ، ونهج يحتذى للطامحين الناهضين ...

المؤلف



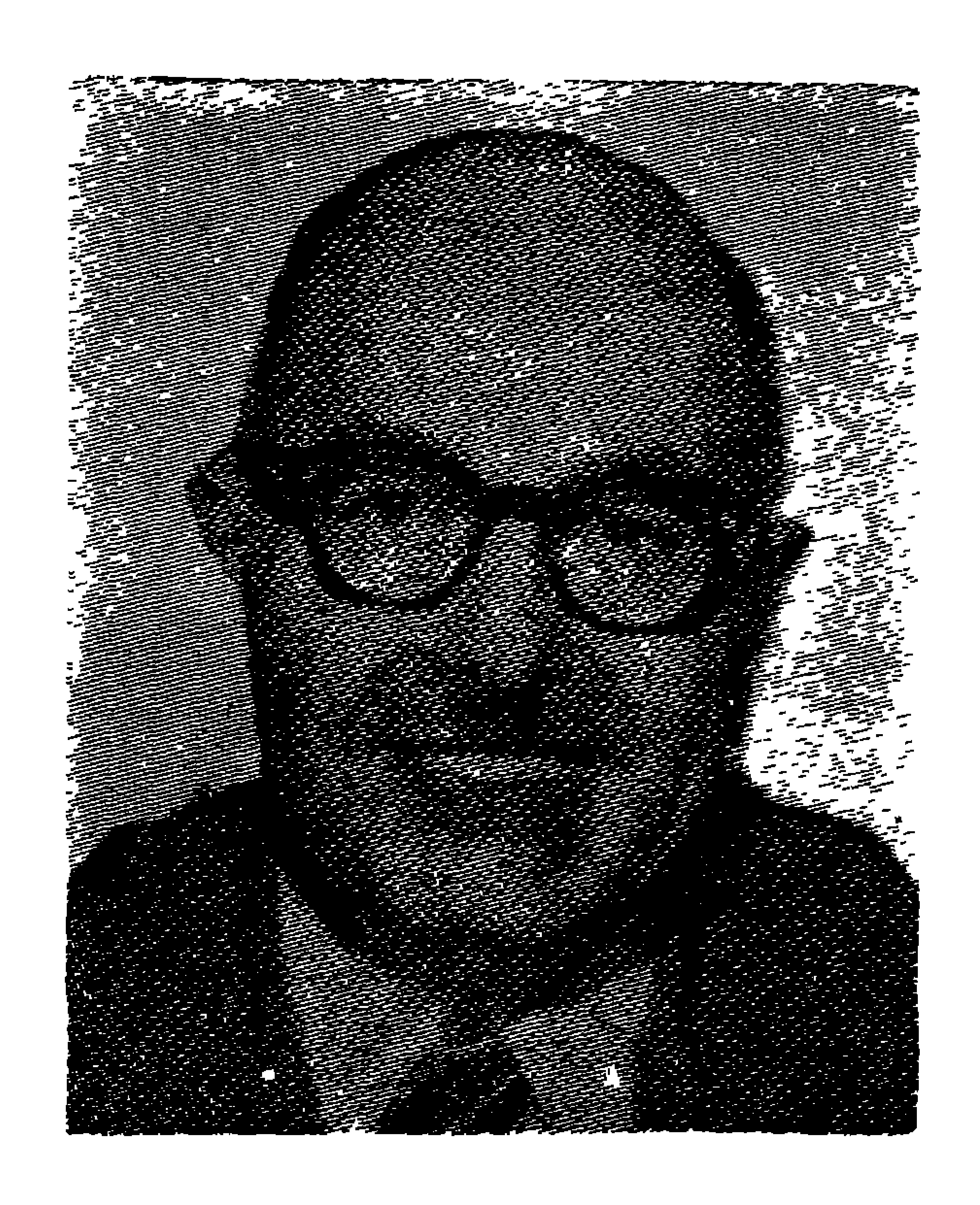
السيد الرئيس جمال عبد الناصر



علي مبـــارك



السيد كمال الدين حسين
وزير التربية والتعليم



السيد أحمد نجيب هاشم
وزير التربية والتعليم

تقديم الكتاب
بقلم السيد الأستاذ
خالد محي الدين

عندما يذكر الشعب المصرى أعلام النهضة المصرية فى الجيل الماضى ، لا بد أن يذكر على مبارك ، ذلك الرائد الذى ارتبط اسمه بنشر الثقافة والتعليم بين صفوف الشعب . فعلى مبارك هو الذى أصدر لائحة رجب الشهيرة عام ١٨٦٨ لتنظيم التعليم على أساس قومى واسع ، وأنشأ المدارس فى معظم المدن ، وخصوصاً مدارس البنات ، وأنشأ دار الكتب . وهو الذى استخدم أموال الأوقاف فى بناء المدارس والإنفاق عليها ، وكان هذا فى الجيل الماضى سبيلا ناجحاً لضمان مجانية التعليم لأبناء الشعب .

لقد كان عباس الأول — كما نعرف — يؤمن بأن الشعب الجاهل سلس القياد . ولهذا أعلن الحرب على التعليم وبدأ مرحلة من التجهيل استمرت حتى أعلن على مبارك لائحته التى غيرت معظم الأوضاع القديمة فى التعليم ، ومنها مثلا النظام الداخلى العسكرى الذى كان مفروضاً على كل المدارس وعقوبة الضرب . كذلك عالج على مبارك انخفاض أجور المدرسين وخدم المدارس ، ونظم التدريس

فى « الكتاتيب » بوصفها أوسع مراكز التعليم انتشاراً فى البلاد . ولهذا كانت لائحته خطوة كبيرة فى الاعتراف بحق الفئات الشعبية فى تلقى العلم . وأصبح على مبارك بهذه اللائحة رائداً من رواد المبدأ التربوى الشعبى الذى ينادى بأن يكون التعليم للناس كالماء والهواء .

إن الأمة العربية إذ تجتاز اليوم ثورتها الوطنية ، وإذ تشعر بحاجتها إلى وضع سلاح الثقافة والعلم فى أيدى جماهير الشعب ، لتذكر على مبارك . . الرائد المصرى الذى آمن بحق الشعب فى أن تتيسر له سبل العلم والتعليم ...

خالد محيي الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يطيب لنا ونحن فى فجر عهد تقف فيه الأمة العربية شامخة قوية بفضل وحدتها ،أن تقدم لأبناء وطننا العربى، أسود بردى ونسور النيل قصة مجد وكرامة — قصة رجل من صميم الشعب ، فلاح بن فلاح ، دلف من الحقل إلى المدينة ، ينتهل العلم غلاباً من موارده ، ويتحمل فى سبيل مطلبه أقسى ما يعرض لرائد ، من سجن وتشريد ، وجوع وحرمان ، وهو إذ يتم بشق النفس مرحلة التحصيل ، نراه ينساب فى سهل الإنتاج ، فياضاً كالبحر الزاخر يغمر بعمله أرض الوادى الخصيب ، فتزدهر بسقيا قريحته عقول طالما تاقت إلى العلم وتعطشت إلى المعرفة ، وتنبع بدائب عمله ثمار أرض طيبة فى بلد طيب أمين .

عمدنا إلى حياة على مبارك نجلوها إنصافاً لرجل من أبناء الشعب ، غمطه مزيفو التاريخ من أبواق الحكام حقه ، فقللوا من أهمية عمله ، وتناسوا إلى حد كبير فضله ، ونسبوا كما كان مألوفاً إلى الأمس القريب كل أثر للمصلح إلى من كان يحكم البلد من الخديويين ،كاسماعيل وغير إسماعيل . فأردنا بهذا أن نصحح التاريخ ، وأن نرد الحق إلى نصابه ، ونسجل الفضل لأربابه وأصحابه .

والحق أن على مبارك شخصية جديرة بالدرس ، لما يجتمع للرجل من مقومات قل أن تجتمع لسواه ، وصفات لا تتوافر فى غير العباقرة الأفذاذ ، فهو الرجل الذى يعمل كل شىء ، ويصلح لكل شىء .

هو المعلم الذى أرسى برأيه وعلمه أساس نهضتنا التعليمية ، فلوائحه ونظمه ومنشآته ، من مدارس ومعاهد ، ودور للكتب ،كل أولئك كانت دعائم متينة لصرح من النهضة التعليمية ، وجده الخلف من بعده قوى البنيان ثابت الأركان .

وهو المهنـــدس ، بنى بتوجيهه وإشرافه كل معالم الحضارة فى عواصم القطر من مرافق عامة ومبـان للدواوين والبوليس والسجون ومحطات للسكة الحديد ، وهو الذى شق الترع الكبرى وشيد القناطر ، وأقام نظم الرى على أساس فنى سليم ، فانساب الماء فى جنبات الوادى الكبير يفيض بالخير والأرزاق أينما جرى وسال .

وهو المؤلف ، أخرج للمكتبة العربية عشرات من عيون الكتب فى تقويم البلدان وفى الهندسة وفى التاريخ وفى الاجتماع وفى علم الأشياء وغيرها من مختلف العلوم والفنون وكلها تفصح عما كان عليه المترجم له من سعة فى الاطلاع وغزارة فى المادة هذا إلى ما يبين فى إخراجها من جهد لا يقوى عليه إلا أمثال مؤلفها الجاد المثابر . . .

وهو المصلح الاجتماعى ، أول من نادى بتحرير الفلاح من ربقة السخرة ، فخفف من جورها إلى حد بعيد ، وأحل نظام المقاولات بالأجر محلها ، وأجاز دفع بدل عن السخرة فى الأحوال القليلة التى ظلت متبعة فيها ، فكان بشيراً بتحرير شامل عم أرجاء الوطن العربى على أيدى خلف صالح لسلف كريم .

وهو الإدارى الحازم الذى شيد من أطلال الأوقاف وركامها وزارة نظامية لها من اللوائح والنظم ما لا يزال حتى اليوم نهجاً صالحاً لكل من يبتغى التقدم والإصلاح .

ثم هو إلى جانب هذا كله مدرسة يتعلم فيها كل رائد أو طالب دروساً بالغة فى المثابرة ، وقوة الإرادة ، والصبر على المكاره ، والتفانى فى الواجب والاعتداد بالكرامة فى غير صلف أو غرور .

* * *

تلك هى السطور البارزة فى سيرة الرجل الذى نقدمه نموذجاً للمواطن الصالح ، ومثلا عالياً للوزير المصلح الناهض ، وحسبنا فى تقديره ما ناله من تمجيد حكومة الثورة المباركة التى رفعت أخيراً الستار عن تمثاله وجعلت من شخصيته لواء يلتف حوله المتعلمون فى احتفالهم بعيد العلم فى كل عام .

وقد اعتمدنا فيما قدمنا على أدق المراجع التاريخية وفى مقدمتها تاريخ حياة المترجم له كما دبجه بيده ، وقد عمدنا إلى إيراده بأسلوبه الذى كتب به ، التزاماً لأمانة واجبة ، وتجنباً لما يترتب على الرواية أو التصرف من تحوير للحقائق وتحريف للوقائع يشوه وجه التاريخ .

وإنا لنرجو أن يجد القارىء فى قصة هذا المصلح العظيم ما يروى صدى غلته ، ويحقق غاية طلبته ، والله ولى التوفيق . . . . .

محمد عبد الكريم

عصـــامية

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» .

قرآن كريم

يقول العالم النفسانى « ألفريد أدلر » بعد أن أنفق جل حياته فى دراسة الإنسان وخصائص نفسه « إن من أروع مميزات الإنسان قدرته على تحويل السالب إلى موجب» ...على أن هذه المقدرة لا تتوفر لغير ذوى العقول الراجحة الذين يعرفون كما يقول الكاتب الاجتماعى « ديل كارنيجى » كيف يصنعون من الليمونة المالحة شراباً حلواً ، وقد صنع على مبارك من حياة كالملح الأجاج شراباً حلواً استحق منه المجد والخلود ، وأجراه على وطنه علماً نافعاً سائغاً للشاربين .

فلقد نشأ على مبارك فى برمبال، من قرى مديرية الدقهلية،فى أسرة ريفية رقيقة الحال ، استقبلته بما تستقبل به العائلة الفقيرة قادماً جديداً يزيد أعباءها ، ويضاعف أحمالها ، فقد كان له سبع شقيقات عدا إخوة ذكور من غير أمه — وكان والده الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان رجلا فقيرا ، كان إماماً وخطيباً وقاضياً لقرية برمبال الجديدة ، وقد ورث أبوه هذه الوظيفة عن أجداده ، وقد عرفت أسرته

فى تلك القرية بأسرة المشايخ ، لهم فيها عدا ما تقدم توثيق عقود الزواج، وأعمال الكيل والميزان ، وكانت لهم موردا معفى من الضرائب ولكنه رزق يسير لا يكاد يفى إلا بما يسد الرمق .

ولم يكن آل مبارك يلتزمون بما يلتزم الفلاحون به لدى حكام الجهات فى ذلك الحين ، وقد استمرت أسرة مبارك على هذه الحال حتى أتى على قرى الريف حين من الدهر اختل فيه ميزان العدالة بين الحاكم والمحكوم ، فلم يعد ما تغله الأرض بجزيا الفلاح ما يقيم به صلبه، ويؤدى به المال المفروض على هذه الأرض والديون التى تثقلها ، وهجر الفلاح الأرض ، واقتضت إرادة الحاكم عندما لمس قلة الحصيلة أن يفرض على أسرة الشيخ مبارك وهى أسرة المشايخ ما يفرضه على الفلاحين فأقطعها جبراً قدراً من أطيان مثقلة بأموال سابقة مستحقة الأداء ، وشدد فى تحصيل مالها فباع أفرادها ما بأيديهم من مواشى وأثاث للوفاء بما فرض عليهم ، حتى إذا ضاقت الأرض بهم وضاقوا ذرعاً بها فعلوا ما كان يفعله الفلاح فى ذلك الحين ، ففارقوا البلد فارين من ظلم الحكام وتفرقوا فى البلاد . وحط الشيخ مبارك والد المترجم له مع أسرته وأولاده وبينهم علىٌ — الذى كان إذ ذاك طفلا فى السادسة — حطوا الرحال بقرية الحمادين بمديرية الشرقية طلبة

للقوت ، والتماساً للرزق غير أنهم مالبثوا أن هجروها ، وهاجروا إلى عرب السماعنة بذات الإقليم وهم من عرب الخيش

وقد لقى والد صاحب الترجمة من عرب السماعنة كل إجلال وإكرام ، فقد كانوا يحبون العلم والدين ، ويهوون إلى حملة القرآن ، فاتخذوا من الشيخ مبارك فقيهاً يرجعون إليه فى أحكام دينهم ، وبنوا مسجداً نصبوه إماماً له ، فطابت نفسه ، وبدأ يصرف شؤون أسرته فى أمان واطمئنان ....

فى لجة الكفاح ...

« إن الجوع هو المهذب الأول ، فهو رأس كل
رقى ، وحجر العقد فى كل تقدم ، فمن الحقيقة البسيطة
التى هى أن الانسان حيوان جوعان ، خرجت مدنيتنا
وتنامى رقيها » ماري كورلى

يقول أمرسون « أن القوة التى أودعها الله فى الإنسان فريدة فى نوعها ، فلا أحد سواه عز وعلا يعلم كنهها ، ولا الانسان نفسه يحيط بمداها ما لم يضعها موضع التجربة » ، وحق ما يقوله الفيلسوف الغربى ، فنحن نرى فتانا حين يبدأ فى طلب العلم يتحسس مواطىء قدميه كلما خطا خطوة متخذا من تجاريبه هاديا ورائدا إلى سواء السبيل .

بدأ الشيخ مبارك يباشر تعليم ابنه بنفسه ، غير أنه لم يلبث أن أوكل أمر تعليمه إلى معلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر ، وجعل الوالد يرسل إلى الشيخ كفاية ابنه ، وانقطع الطفل للدرس عند الشيخ أحمد ، وكان لا يذهب إلى بيته إلا فى أيام الجمع . ولقد كان فتانا يخاف شيخه ويعمد إلى مداراته واتقاء شره بما كان يحمله إليه من الهدايا ، وينقلنا على مبارك فيما كتبه عن حياته إلى جو « أيام » الدكتور

طه حسين ، فهو يقول فيما يرويه عن الفقيه الذى يحفظ القرآن عليه « ومن خوفى منه كنت لا أعود إليه فارغ اليد ، ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك وجعلت أقرأ عند والدى ، إلا أنى لكثرة أشغاله ، واشتغاله عنى استعملت اللعب والتفريط فنسيت ما حفظته فخشى والدى عاقبة ذلك فهم بجبرى على الذهاب إلى هذا المعلم ، فتعاصيت ونويت الهروب إن لم يرجع عنى » ...

ويفسر لنا المترجم له سر عصيانه بأنه لم يكن لشىء سوى أنه حين عاشر الفقيه وتأمل ماهو عليه ، عز عليه أن يصبح يوما من الأيام مثله فهو يقول « اخترت ألا أكون فقيها بهذه المثابة ، وإنما أكون كاتبا لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام — وكان لوالدى صاحب من الكتاب كان كاتب قسم وإقامته بناحية الأخيوه ، فأسلمنى إليه ، فرأيته رجلا حسن الهيئة ، نظيف الثياب ، جميل الخط . فأقمت عنده مدة ولى من والدى مرتب يكفينى ، فدخلت بيته وخالطت عياله ، فإذا هو بجمل الظاهر ، فقير فى بيته ، وله ثلاث زوجات وعيال على قلة من الزاد ، فكنت فى غالب أيامى أبيت طاويا من الجوع ، وكان أغلب تعليمه إياى على قلته فى البيت أمام نسائه ، وكان خروجه إلى السرحة قليلا ، وإذا خرج يستصحبنى معه فلا أستفيد إلا خدمتى له ، ومع ذلك فكان يؤذينى دائما » .

ويستطرد على مبارك فيما كتبه عن نفسه فيقول « إلى أن كنا يوما فى قرية المناجاه فسألنى (الكاتب) أمام الناظر وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد فقلت باثنين ، فضربنى بقلاة بن فشجنى فى رأسى فلامه الحاضرون » ...

وليس عجبا أن يخطىء الغلام على مبارك أو يوصف بالغباء وهو الذى حصل فيما بعد من العلوم والمعارف ما رفعه إلى مصاف العباقرة ، ذلك بأننا كثيرا ما نخطىء الحكم على الأولاد إذا نحن اتخذنا حالهم أيام الطفولة مقياسا لاستعدادهم ، ألم تر إلى توماس أديسون كيف طرد من المدرسة لغباوته وبطء فهمه ، فمضى مشردا لا يحمل غير دولار واحد هو كل رأس ماله الذى ناله من أبيه لكسب عيشه . ثم بيترو دى كارتونا المصور الإيطالى ، لقد كان معدودا من أشد الأولاد بلها وغباء حتى لقب برأس الحمار . ونيوتن كان آخر فرقته إلا واحدا ، والطبيبان الشهيران تشرملس وكوك طردهما معلمهما لأنهما أبلهان لا يقبلان اصلاحا .

نعود إلى المترجم نتابع الاستماع إلى قصة حياته حيث يقول « وذهبت إلى والدى أشكو إليه ، فلم أنل إلا الأذية ، وكان يومئذ مولد سيدى أحمد البدوى ، فهربت مع الناس قاصدا المطرية جهة المنزلة ، لألحق بخالة لى هناك ، فرضت بالريح الأصفر[1] فى طريق بقرية

(١) الكوليرا

صان الحجر ، فأخذنى رجل من أهلها لا أعرفه ، فتمرضت عنده أربعين يوما ، وقد سألونى عن أهلى فقلت أنا يتيم مقطوع ، وكان والدى فى تلك المدة وأحد إخوتى يفتشان على فى البلاد ، فاستدل على فى صان ، فلما رأيته من بعيد هربت ، ونزلت بمنية طريف ، فأخذنى رجل عربى فلم أقم عنده إلا قليلا وهربت منه ،ولحقت بأخ لى فى بلدتنا برنبال ، وكان قد رجع إليها ، وبعد أيام قدم إلينا أخى الذى كان يفتش علىّ ، فأخذنى بالحيلة إلى والدى ، وقد اشكل عليهم أمرى فذهبوا كل مذهب فى تربيتى وما يصنعون بى ، فجعلوا يعرضون علىّ القراء والكتاب ، فلم أقبل ،وقلت إن المعلم لا أستفيد منه إلا الضرب ، والكاتب لا يفيدنى إلا الضياع والأذية ، ويستفيد منى الخدمة ، ثم عرض علىّ والدى أن يلحقنى بصاحب له من كتبة المساحين فرضيت بذلك ، .

وهكذا ترى فتانا يتربى فى المدرسة التى أنجبت أعلام الناس وفتقت أفكار قادة الفكر وأساطين العلم ، مدرسة الفقر التى أنجبت محمدا وعيسى وموسى والنبيين ، مدرسة الجوع التى حملت أبا حنيفة والشافعى لواء الامامة ، وفتقت أذهان أمثال لويد جورج الذى ساس الامبراطورية البريطانية فى أوقات كان مصيرها فى كفة القدر ، وكان فى صباه يأكل الخبز بلا إدام لرقة حال ذويه ، و « تيرى » اللغوى صاحب

أصول الإيمان ، الذى لم يجد ثمن القلم ، فتعلم فى حداثته الكتابة بالفحم . و «مور» ، الذى لم يقو على شراء كتاب الأصول لنيوتن فنسخه بيده ، ووليم تشامبرس المؤلف الإنجليزى الشهير الذى يقول عن نفسه إنى أقف أمامكم كرجل علّم نفسه ، لأنى أتيت ايدنبرج وأنا صغير لا أملك درهما وكنت أعمل كل نهارى وجانبا من الليل عند بائع لأحصل على قوت يومى ، واسترق بعد هذا من ساعات نومى ما اشبع به بعض نهمى إلى العلم . ووليم كوايت الذى فجر ينابيع العلم من صخور الفقر الصلدة ، وتعلم النحو الإنجليزى فى أقل من سنة وهو جندى مقعد فى سريره ومائدته لوحة من خشب ونوره من وهج النار التى كان يصطليها ، وكان إذا اشترى قلما وقرطاسا ظل طاويا سحابة يومه . وأبراهام لنكولن وبنيامين فرانكلين وغيرهم من العصاميين ، الذين بنوا مستقبلهم بأيديهم ، وأقاموا بالعزم أمجادهم .

خرج على مبارك من هذه المدرسة كما خرج هؤلاء . خرج قويا كالأحداث التى صادفته ، صلدا كالفقر الذى نشأ فيه ، وذاق منذ صباه مرارته وقسوته . فبحافز الجوع وبدافع الحاجة ينطلق العباقرة المغمورون ليضعوا بكرامات العقل الراجح ما يعلى قدرهم ، ويرفع لهم ذكرهم ، ويخلد بالعمل الكبير مجدهم ...

فى غيابة السجن ...

ذريى وأهوال الزمان أقاسها
فأهواله العظمى تلتهــا رغائبه
(حبيب الطائى)

وينتهى المطاف بالغلام على مبارك إلى العمل لدى كاتب المساحة حيث طابت نفسه لمـا كان يصيب من نقود يأخذها الـكاتب من الأهلين . وكان ممكناً أن يستمر الفتى على هذه الحال التى ارتضاها بعد أن برم بحياته وتمرد على كافة الأوضاع التى مر بها ، لولا أن الله جلت قدرته قد شاء بالفتى وببلاده خيراً ، إذ قضت حكمته أن يختلف الرجل وغلامه لما فرط من الغلام من بوح بأسرار مخدومه ،وما يجمعه ذلك الرجل لنفسه من مال من الأهلين فطرده كاتب المساحة .

يعود الفتى إلى أبيه الذى لم يجد له ما يشغله به سوى أن يستخدمه معه فى تحصيل الأموال الأميرية التى كان منوطاً بتحصيلها من العرب فـكان يباشر رصدها فى الـكشوف ويعمل حسابها ، وكان مع هذا لا يفتأ يقرأ على أبيه ما حفظ من القرآن الـكريم — وبعد عام تقريباً ألحقه أبوه بعمل لدى كاتب مأمورية أبى كبير بمـــاهية

قدرها خمسون قرشاً لينقل له الأوراق بالدفاتر ، وقد أقام عند هذا الـكاتب ثلاثة أشهر حتى خلقت ثيابه وساءت حاله ، ولم ينل من الأجر الذى اتفق عليه شيئاً سوى ما كان يقدم له من طعام — وهنا نرى الأيام تقسو على الفتى فتودى به إلى السجن ، وإلينا ما كتبه المترجم له عن حياته فى هذا حيث يقول : —

« وفى يوم عينى (كاتب مأمورية أبى كبير) لقبض حاصل أبى كبير فقبضته وأمسكت عندى منه قدر ماهيتى ، وكتبت له علماً بالواصل ووضعته فى كيس النقدية ، فلما وقف على ذلك اغتاظ منى وأسرها فى نفسه ، وكان مأمور أبى كبير يومئذ عبد العال أبو سالم من منية النمروط ، فأخبره (الـكاتب) بذلك ، واتفق أن كانت المأمورية مطلوب منها شخص للعسكرية ،فأغراه على ،وتوافقا على إلحاقى بالجهادية لسداد هذه الطلبة ، فنادونى على حين غفلة ، وأمرنى المأمور بالذهاب إلى السجن لـكتب (لـكتابة) المسجونين ، وأصحبنى رجل من أغوات المأمورية ، فلما دخلت السجن أحضروا باشا من الحديد (قيد من الحديد) ووضعوه فى رقبتى وتركت مسجوناً ، فداخلنى ما لا مزيد عليه من الخوف ، فلبثت فى السجن بضعة وعشرين يوماً فى أوساخ المسجونين وقاذوراتهم ، وصرت أنتحب ، فرق لى السجان لصغر سنى ، فقربنى إلى الباب ، وواسيته بشىء من النقود التى كانت سبب سجنى ، وكنت أرسلت إلى والدى

بخبرى ، فذهب إلى العزيز[1] وكان بناحية منية القمح ، وقدم له قصتى فى عرضحال ، فكتب بإخلاء سبيلى . وأخذ والدى الأمر بيده . وقبل حضوره إلى أتى إلى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير ، وأخبره أن المأمور محتاج إلى كاتب يكون معه بماهية ، وكان السجان يميل إلى ، فدله على ووصفنى بالنجابة وحسن الخط ، وعرفه مسكنى وما أنا فيه ، فمال الخادم إلى ، وطلب منى أن أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور ، فكتبت عريضة وأعنيت فيها وناولتها للخادم مع غازى ذهب[2] قيمته عشرون قرشا ليسلك لى الطريق عند مخدومه ووعدته بأكثر من ذلك أيضاً فأخذها وبعد قليل حضر بأمر الإفراج عنى ... » .

(١) محمد على الكبير .
(٢) عملة ذهبية كانت مستعملة فى ذلك الحين .

بريق العلم . . . .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون » .

(قرآن كريم)

وقفنا بالقارىء عند باب السجن حيث استقبلنا الفتى على مبارك وهو يبارحه متعثراً فى أسماله البالية ، ليأخذ سمته إلى مأمور زراعة القطن ، إذ أقال حسن خطه لديه عثرة حظه عند سواه .

ويمثل فتانا بين يدى مأمور الزراعة حتى إذا رفع بصره يتأمل مخدومه الجديد عرته الدهشة وأخذه العجب ، وحسبنا فى هذا مايقوله « وأخذنى معه حتى قربت من المأمور وكان اسمه عنبر أفندى . فنظرت إليه . فإذا هو أسود حبشى ، كأنه عبد مملوك ، لكنه سمح جليل مهيب . ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفاً بين يديه وهو يلقى عليهم التنبيهات ، فتأخرت حتى انصرفوا ، فدخلت عليه وقبلت يده ، فكلمنى بكلام رقيق عربى فصيح وقال « تريد أن تكون معى كاتباً ولك عندى جراية كل يوم ، وخمسةوسبعون قرشاً ماهية » فقلت نعم ، ثم انصرفت من أمامه وجلست مع الخدامين ، وكنت أعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديه جماعة من مشاهير البلاد وأصحاب الثروة

والخدم والحشم والعبيد ، فاستغربت ما رأيته من وقوفهم بين يديه وامتثالهم أوامره . وكنت لم أر مثل ذلك من قبل ولم أسمع به . بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت عليه العادة فى تلك الأزمان وبقيت متعجباً متحيراً فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد ويقبلون أيديهم . وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب ، فكان ذلك من دواعى ملازمتى له . وفى ثانى يوم حضر والدى بأمر العزيز فسلمت عليه ، وأدخلته على المأمور وعرفته إياه ، فبش فى وجهه وأجلسه وأكرمه . وكان والدى جميل الهيئة ، أبيض اللون فصيحاً متأدباً ، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه . فكلمه فى شأنى ، فقال له إنى اخترته ليكون معى ، وجعلت له مرتباً وإن أحببت فذاك . فشكر له والدى ، ورضى أن أكون معه ، وذكر له أصولنا وحيلتنا . وانصرف من مجلسه مسروراً . ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور . فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود . فأجابنى بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً ، فقلت هل يكون العبد حاكما ، مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلا عن العبيد ، فجعل هو يجيبنى بأجوبة لا تقنعنى . فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته ، فأقول وما معرفته ؟ فيقول لعله جاور بالأزهر وتعلم

فيه ، فأقول وهل التعلم بالأزهر يؤدى إلى أن يكون الإنسان حاكما ؟ ومن خرج من الأزهر حاكما ؟ فقال يا ولدى كلنا عبيد الله والله تعالى يرفع من يشاء فأقول « مسلّم » ولكن الأسباب لا بد منها . وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعارا لم أقتنع بها ، ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره . وبعد يومين سافر عنى وتركنى عنده ....

كرامة . . . . .

السكرامة هى الحافز الأقوى لكل عمل صالح
« كانت »

أى والله هى الكرامة أقوى حافز على العمل الصالح ، وبحافز هذا الخلق العظيم أبى على مبارك أن يظل على تلك الحال ، وأن يرضى بذلك العمل الصغير فى معاونة عمال الحكومة لقاء أجر زهيد . وإلينا ما يقوله صاحب الترجمة فى ذلك « ثم حدثت لى فكرة أخرى مع الفكرة الأولى ، فكنت أقول إن الكتابة والماهية كانت هى السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى ، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك ، فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل معى الكاتب فمن يخلصنى ؟ واستمرت الفكرتان فى بالى . وكانت همتى فى التخلص من ذلك ومن أمثاله ، وأن أكون بحال لا ذل فيها ، ولا تخشى غوائلها وفى أثناء ذلك اصطحبت بفراش له ، فجعلت أتفحص منه عن أخبار سيده وأسباب ترقيته ، وكنت أسترق ذلك منه استراقاً . فأخبرنى أن سيده مشترى ست من الستات الكبار ، مرعيات الخواطر ، أدخلته سيدته مدرسة قصر العينى لما فتح العزيز المدارس وأدخل فيها الولدان . وأخبرنى أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية

وغير ذلك ، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس . فحينئذ جال في صدري أن أدخل المدارس . وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين ؟ . فأفادني أنه يدخلها صاحب الواسطة . فشغل ذلك بالي زيادة ، ومع ذلك لم تفتر همتي ، وسألته عن قصر العيني وعن طريقه ، وكيفية الإقامة فيه . فأخبرني عن ذلك كله ، وأثنى على حسن إقامتهم بها ومأكولهم وملبوسهم وإكرامهم ، فازددت شوقاً ، وكنت أكتب عندي كل ما يخبرني به من بيان الطريق وقدر المسافة وأسماء البلاد التي في الطريق . وقامت بنفسي فكرة التخلص والتوصل إلى المدارس ، فطلبت الإذن في زيارة أهلي فأذن لي بخمسة عشر يوما ، فسافرت إلى أن وصلت في يوم السبت إلى بني عياض . قرية في طريق . فتقابلت مع جملة أطفال تحت قيادة رجل خياط ، مع كل واحد دواة وأقلام ، فجلست معهم تحت شجرة وتحادثنا ، فظهر لي أنهم تلامذة من مكتب منية العز ، وكان ذلك فألا حسناً ، ورأوا خطي فوجدوه أحسن من خطوطهم . فقال بعضهم لبعض « لو ألحق هذا بالمكتب لكان جاويشاً » . فقال الخياط ذلك قليل عليه فإن خط الباشجاويش الذي عندنا لا يساوي هذا الخط » . فسألتهم ما الجاويش وما الباشجاويش ؟ « فأفادوني أنهم المقدمون في المكتب ، فجعلت أستفهم عن المكتب وصفته وجعل الخياط

يحسن لى أوصافه ويغربنى على دخوله ، وأفهمنى أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس بلا واسطة . فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ، ودخلت المكتب فإذا ناظره من معارف والدى — فأراد أن يمنعنى من الانتظام فى عقد التلامذة ، واجتهد فى ذلك لمرضاة والدى ، فلم أسمع كلامه ، وبقيت فى المكتب خمسة عشر يوماً ... » .

إرادة . . . . . .

لبس فى الإنسان ما هو لاصق بشخصه أكثر
من الإرادة .

« ديكارت »

يقول أفلاطون « أطلب فى الحياة العلم والمال تحز الرياسة على الناس . فإنهم بين خاصة وعامة . فالخاصة تفضلك بما تحسن ، والعامة تفضلك بما تملك » ... وقد أدرك الفتى على مبارك هذه الحقيقة ، فقد رأى أن الأعمال التافهة التى يزاولها لن تغنيه فى الحياة شيئاً . وأنه لضآلة ما أصاب من علم ومعرفة يعيش مغلوباً على أمره ، حتى لقد سجن ظلماً دون أن يقوى على دفع الظلم . وهو إذ يتأمل ذوى المناصب كمأمور الزراعة الذى انتهى إلى العمل معه ، يرى أن السر فى رفعة شأنه وإجلال الناس وإكبارهم إياه رغم أنه عبد حبشى ، السر فى ذلك هو أنه تلقى العلم فى مدرسة قصر العينى .

وغدت أمنية الفتى أن يتعلم فى مدرسة قصر العينى . وعلى الرغم من عجز حيلته وانعدام وسائله ، فقد أبى إلا أن ينهج السبيل المؤدية إلى هذه المدرسة مهما كلفه الأمر من مشقة . فحصل على أجازة من مخدومه ، وبدلا من أن يرجع إلى بلده ، أخذ سمته إلى مكتب

منية العز حيث بقى هناك أياما يدرس مع التلاميذ . وقد أوضحنا كيف عارض ناظر المدرسة فى انتظام الفتى بهذه الدراسة ، حتى إذا ضاق الناظر ذرعاً به ، وخاصة بعد أن هدده الصبى بشكايته لأولى الأمر إذا هو حاول منعه عن الانتظام فى الدرس مع أقرانه ، نرى الرجل يعمد إلى أب الغلام يبين له ما لمسه من رغبة الولد فى الدرس ويتفق الرجلان على أن يأخذاه بالحيلة على غفلة منه ومن التلاميذ ، وقد كان لهما ما أرادا . فنى فترة راحة الظهيرة نرى الأب يختطف ابنه ويعيده إلى بلدته ، حيث يحبسه فى الدار نحو عشرة أيام — وتظل الأم تبكى إلى ولدها ، تستعطفه وتستحلفه أن يرجع عن غيه ، وأن يستقر فى عقر داره . ويظهر الغلام رضوخه لمشيئة أبويه وطاعته إياهما . وينطلق يرعى الأغنام مبتعداً عن الكتابة وعن الدرس الذى كان سببا فى فراقه الأهل والبلد .

ويطمئن خاطر الجميع ، ويظن الأهل أن فكرة السفر قد زايلت رأس الغلام ، حتى إذا سجى الليل ، نرى الصبى يتسلل إلى حيث دواته وأدواته ، فيحملها ويخرج مولياً وجهه شطر منية العز ، قبلته ووسيلته إلى أمنيته الغالية ، أمنية التعلم والدرس — يسير الصبى فى ضوء القمر بين المزارع والحقول وقد أنسته نشوة الفرح مخاوف الطريق وأخطاره ، فإذا كنا فى ضحى اليوم التالى رأينا الغلام قد

بلغ فى سيره بلدة منية العز . وعلى الرغم مما قاساه الصبى من مشقة السير طوال ليله دون نوم ولا راحة ، فإنه لم يكد يبلغ القرية ويرى باب مبنى المكتب حتى نراه يهرع إليه ، ويدلف منه إلى حيث يجلس بين أقرانه ، غير شاعر بما حلّ به من تعب ، وقد أصاب منه بلوغ هذه الغاية مواقع الماء من ذى الغلة الصادى .

ويأبى الغلام وقد بلغ كعبته أن يفارق محراب العلم لحظة . فهو يبقى به حتى يحين موعد النوم ، فينام مخافة اختطافه إذا هو برح مكانه وقد صدق حدس الغلام فقد جاء أبوه فى أثره ، يحاول اختطافه كما حاول من قبل ، ولكن الغلام، كان معتصما بالمكتب ، متشبثاً به تشبث الغريق بطوق النجاة ...

فى طريق المجد

همامة نفس أصغرت كل مأرب
فـكلفت الايام ماليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه
فـكل الذى يلقاه فيها محبب
(البارودى)

اعتصم الصبي على مبارك بمكتب منية العز يأبى أن يفارقه خشية اختطافه والعودة به إلى برنبال ، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يعود إلى حياة الحقل ورعى الأغنام ، بعد أن خالط المتعلمين من عمال الحكومة وأدرك أن العلم هو السبيل الأمثل لبلوغ المناصب الرفيعة ، وكسب المهابة والاحترام .

وظل الصبي مكبا على الدرس والتعلم . حتى كان يوم هبط فيه إلى قرية منية العز ناظر مكتب الخانقاه «عصمت أفندى» وقد جاء مكلفا بفرز التلاميذ واختيار النجباء منهم لالحاقهم بمدرسة قصر العينى . ووقع اختيار عصمت أفندى على الصبي على مبارك . وهكذا تحقق الحلم الذى كان يداعب الغلام طويلا والذى كافح فى سبيل تحقيقه أشد الكفاح .

ونمى الخبر إلى الأب فجاء إلى القرية يسعى . يحاول أن ينتزع

الصبي من يدى ذلك الأفندى الذى جاء ليأخذه إلى العاصمة . ويزيد بعد شقته . وخيّر الغلام بين العودة إلى برنبال أو الالتحاق بالمدرسة ، فأبدى رغبته صادقة صريحة فى أن يتم دراسته بقصر العينى . ولم تفلح محاولات الأب تارة بالضرب والتهديد ، وطورا بالبكاء والترغيب ، كما لم يفد ما بذله ناظر مكتب منية العز ومعلموه مرضاة للشيخ مبارك فى حمل الولد على العدول عن السفر ، فقد أصر الغلام على السفر وكان له ما أراد ...

وقد يكون من الطريف ونحن فى معرض الحديث عن التعليم فى ذلك العصر أن نورد شيئاً عن الطريقة التى كان يجمع بها التلاميذ ليرسلوا إلى المدرسة التجهيزية .

يحدثنا فى هذا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فيما كتبه فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على الكبير فيقول « وتمضى أيام وترسو ذهبية كبيرة جميلة على شاطىء النيل ، وينزل منها رجال من أعوان الحكومة متجملون باللباس الغالى ، وعلى أكتافهم وأذرعتهم نجوم لامعة . ورجال القرية ينظرون إليهم مشفقين على أبنائهم أن تأخذهم الحكومة إلى حاضرة البلاد . وناظر المكتب ومدرسوه وخدمه يتقبلونهم فى خضوع واحترام . والتلاميذ فى ملابسهم الزاهية النظيفة ينتظرون بذاهب الصبر هذا « الامتحانجى » وأعوانه الذين طالما سمعوا عنهم

كثيرا . فتمضى أيام والتلاميذ يغدون ويروحون بين « الامتحانجى » وأعوانه يلقون إليهم ، فى حذق أو غباء ، ماقرأوه فى عامهم الدراسى وما أخذهم به معلموهم . وتظهر النتيجة بعد يوم أو بعض يوم ، ويعرف الذين اختيروا بالمدرسة التجهيزية ، فمنهم كاسف البال الذى يخشى التغرب وفرقة الأهل والديار ، ومنهم الفرح الطروب الذى يتطلع إلى الحياة والمستقبل . وأولئك وهؤلاء يهرعون جميعا إلى ملابسهم فيحزمونها ، وإلى زملائهم وأساتذتهم فيودعونهم ، ثم إلى شاطىء النيل ليستقلوا لأول مرة فى حياتهم هذه الذهبية الجميلة فى النيل الجميل إلى العاصمة الجميلة ، وأهلهم من حولهم على شاطئ النهر يغالبون الدمع ، ويتنازع قلوبهم الأمل والاشفاق ، ويتهادى السفين على صفحة الماء ، والأطفال يملأون عيونهم من أهلهم ومن بيوت القرية وحقولها الخضراء .... »

ويدخل على مبارك مدرسة قصر العينى فى سنة احدى وخمسين ومائتين وألف هجرية وكان إذ ذاك فى الثانية عشرة من عمره — وكان تلاميذ مدرسة قصر العينى يقسمون حينذاك إلى فرق ، كل فرقة يشرف عليها أحد الأساتذة وقد ألحق غلامنا فى فرقة برعى أفندى .

ويمضى علىّ يتأمل المعهد الذى كافح وناضل من أجل الالتحاق به ، فإذا بآماله تنهار وأحلامه تبدو لناظريه سرابا وأوهاما ،

فالدروس تافهة وغير منتظمة . والوقت يضيع أكثره فى تعليم المشى العسكرى الذى يفرض على التلاميذ فى الصباح وفى الظهر ، وبعد الأكل وفى أماكن النوم – والعمل بين المعلمين ارتجالى يسير على غير نظام . وكانت حياة التلاميذ أشبه بحياة السجناء والمذنبين ، فالضرب والسب والتحقير هى الأسلوب المألوف بالمدرسة ، والفرش حصير من الحلفاء[1] وأحرمة من الصوف الغليظ وكان الطعام يعد بغير عناية وهو مع عدم كفايته لا يوزع بين التلاميذ بالعدل ، وإنما يتحكم المستخدم المكلف بتوزيعه فى تقديره ، ما شاء له غرضه وهواه حتى اضطرفتانا إلى الاستعانة بدراهمه القليلة التى حملها معه لشراء الجبن والزيتون من السوق ..

---

(١) الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشاجزء ٩ كلمة برنبال ، يخالف هذا ما أورده الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى كتابة «تاريخ التعليم فى مصر فى عهد محمد على» اذ ذكر أن الاولاد يبيتون على سرر مرفوعة ، ويبدو أن ما ذكره الدكتور عزت كان عن وقت لاحق لتلمذة المترجم له .

بين شقى الرحى ..

والحمد شهد لا ترى مشتاره
يجنبه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذى
لم يوه عاتقه خفيف المحمل

يقول مونتان الفيلسوف الفرنسى « إن المرء لا تضيره الحوادث وإنما الذى يضيره حقا هو تقديره للحوادث . وتقديرنا للحوادث أمر متروك لنا وحدنا » .

هال الفتى على مبارك ما شاهده من فوضى مدرسة قصر العينى ، وهو الذى تخيلها كما صورها له فراش مخدومه السابق عنبر أفندى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، فيها كل مقومات العقل السليم والجسم السليم ، من علم وعناية ، وغذاء طيب ، ومسكن صحى ، وملبس أنيق نظيف . ولعل أشد ما آلم الغلام وحز فى قلبه أن يرى نفسه — وهو الذى تحمل المشاق هربا من المنزل — فى مكان لا يجد فيه الطالب غير الأذلال والاحتقار ، من ضرب وشتم وسباب ، وأن يلمس الفوضى تشيع فى كل أرجاء ذلك المعهد فلا براج ولا ترتيب ولا نظام .

ويملأ الأسى قلب الغلام ، ويساوره الهم والقلق حتى يحل به

المرض والسقم ، ويطفح الجرب على جسمه فتنقله المدرسة إلى المستشفى وهو على أسوأ حال .

ويترامى خبر الغلام إلى أبيه فيسارع إلى العاصمة ليرى ولده قبل أن يقضى . حتى إذا بلغ الأب باب المستشفى أبى الخدم السماح له بالدخول . وما أن يغرى الرجل الخادم بجعل من المال حتى نرى الخادم يسارع إلى الشباك فيكسره ويدعو الغلام أن يقفز منه إلى حيث يلاقى أباه بغية ان يعود معه إلى بلده وأهله .

يقول شوبنهور إن خير ما يفعله المرء حين يرتج عليه أمر أو يستعصى عليه حل مشكلة أن يطرح عنه العواطف والانفعالات وأن يلتزم الهدوء الذى هو فى نظر الفيلسوف مهادنة من الارادة للعقل ، ليتمكن من إصدار الحكم الصائب السليم — هذا ما فعله الغلام على مبارك حين حطم له الخادم بإغراء المال قضبان المستشفى . وحسبنا فى تصوير حاله وما كان يعتمل فى نفسه من عواطف وأحاسيس أن نقرأ ما سطره بيده فى هذا حيث يقول « ولم أشعر إلا والتمارجى قد كسر شباك الحديد من المحل الذى أنا فيه وأخبرنى بمرغوب والدى وأنه واقف ينتظرنى خارج المستشفى ، وأراد أن ينزلنى من الشباك ويوصلنى إليه ليأخذ جعله . فمالت نفسى لاجابته والذهاب مع والدى وترك المدارس وأهلها لما رأيت من الشدائد

وعدم التعليم . وما لحقني من الجوع بالاسبتالية ، حتى كنت أمص العظم الذى يلقيه الآكلون . ولكنى فكرت فى عاقبة الهروب ، فانهم كانوا يطلبون من يهرب من التلامذة ويقبضون على أهلهم ويقيدونهم ويهينونهم . فامتنعت من الخروج معه . فاجتهد فى التحيل علىّ وتسهيل الأمر لدىّ . فأبيت وقلت أصبر على قضاء الله وأنا الجانى علىّ نفسى . وقلت له بلغ والدى السلام وسله أن يدعو لى . وأن يبلغ والدتى عنى السلام . ثم ان والدى توسط حتى دخل عندى ، ورأيته ، وقبلنى ، وبكى وبكيت ، ثم ودعنى ومضى لسبيله وله زفرات وعبرات ولسان الحال يقول :

عسى الكربُ الذى أمسيتُ فيه   يكونُ وراءَه الفرجُ القريبُ

ويشاء الله بالفرج فيشفى الغلام ويخرج إلى المدرسة معافى يعمل فى همة ونشاط ولم يعاوده المرض بعد ذلك . ويبدو أن الفتى حين أحجم عن الهرب من المستشفى وآثر العودة إلى المدرسة كان مسوقا بحافزين الخوف والطمع . ذلك بأنه رغم ما وجده من فساد النظام بالمدرسة ، كان يرى فيها السبيل الوحيد للوصول إلى المراتب الرفيعة واكتساب تعظيم الناس واحترامهم ، بما يرضى نفسه العالية التى مسها هوان العمل الوضيع . وأما الخوف فلأن المدارس فى ذلك الحين كانت أشبه بحصون أو بشكنات عسكرية يحرسها الجند . فإذا تمكن

تلميذ من اختراق تلك الاستحكامات كانت المدرسة تسارع إلى إخطار الديوان أو المديرية . والمديرية بدورها تصدر أوامرها إلى الجند الذين كانوا يقومون بالقبض على أهله وتعذيبهم حتى يأتوا بابنهم الفار . وكان الهرج والمرج يعم القرية التى يهرب أحد أبنائها من المدرسة لما كان يبديه رجال الادارة من ضغط وإيذاء ، وحجة الحكومة فى ذلك أنها أنفقت فى تعليم الولد من المال ما لا ينبغى أن يضيع هباء .

ويظل على مبارك فى مدرسة قصر العينى عاما أو يزيد ينقل بعده هو وأقرانه إلى مدرسة أبى زعبل ليفرد مبنى قصر العينى لمدرسة الطب التى تشغله حتى الساعة . وقد أسندت نظارة مدرسة أبى زعبل حينذاك إلى إبراهيم بك رأفت الذى عنى بأمرها عن ذى قبل .

أسلوب يخلق مصلحا ...

« إن من البيان لسحرا » .
(حديث شريف)

إذا جاز للمؤرخين أن يصفوا على مبارك بأبي التعليم فى مصر ، فمن الإنصاف أن نذكر بالإعجاب والتمجيد ذلك الرجل الذى كان له الفضل الأكبر فى تعليم على مبارك وفى حسن إعداده ، ذلك هو المرحوم ابراهيم بك رأفت ناظر المدرسة التحضيرية التى نقلت من قصر العينى إلى أبى زعبل .

فقد كانت طريقة التعليم السائدة فى ذلك العهد قائمة على التلقين وحشو الأذهان بالقواعد والنصوص الجافة . فإذا أبت القاعدة أن تستقر فى ذهن طالب ، لم يجد المعلم غير عصاته أداة يثبت بها ما يصعب تثبيته فى ذهن الطالب من القواعد أو المعلومات ، وقد أبت عقلية الفتى على مبارك أن تستسيغ هذا الأسلوب العقيم ، فكان فى تلك المرحلة من التعليم أضعف تلاميذ فرقته معرفة وآخرهم ترتيبا ، وكان من المحتمل كثيراً أن يفصل من المدرسة لضعفه واستعصاء فهمه ، لولا أن قيض الله من ناظر مدرسته ابراهيم بك رأفت معلماً

بارعاً عرف أثر التشويق وحسن العرض فى شرح ما يصعب من المواد ، فأحال بما بذل مواد العلم العسيرة الفهم رحيقاً حلواً سائغاً للشاربين .

وكانت أصعب المواد على فتانا الهندسة والحساب والنحو ، فكان يراها على حد تعبيره « كالطلاسم » وكان يرى كلام المعلمين « ككلام السحرة » وقد ظل الأمر على هذه الحال حتى كان يوم جمع فيه رأفت بك متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة وجعلهم فرقة مستقلة ، وكان على مبارك منهم بل وكان باعترافه آخرهم . وقد أقام رأفت بك نفسه معلماً لهذه الفرقة من ضعاف التلاميذ واتبع خطة حكيمة يجدر بكل معلم أن يقتفيها . خطة التشويق التى يدعو إليها رجال التربية الحديثة . وحسبنا أن نورد ما ذكره صاحب الترجمة فى ذلك إذ يقول « فنى أول درس ألقـــاه علينا رأفت بك أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون . وأن هذه الحروف التى اصطلحوا عليها إنما تستعمل فى أسماء الأشكال وأجزائها كاستعمال الأسماء للأشخاص ... فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت ما يقول ، وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ ، ولم أقم من أول درس إلا على فائدة ... فختمت عليه

فى أول سنة جميع الهندسة والحساب ، وصرت أول فرقى ، وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولطريقة التعليم السيئة . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة . وفى تلك السنة سنة خمسة وخمسين وألف ومائتين فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق فاختارونى فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها ، وكنت دائماً أول فرقى وقلفتها » .

وليس من شك فى أن أسلوب رأفت بك يعد با كورة التجديد الذى قام عليه إصلاح التعليم منذ ذلك الحين ، وكان له أكبر الأثر فى توجيه تلميذه على مبارك إلى إصلاح التعليم بما يتفق وأصول التربية الصحيحة — فلقد كان التعليم قبل تطوره الذى بدأ عام ١٨٣٦ أشبه ما يكون بالتجنيد . وكان الفلاحون يرون أن جمع الأولاد ليس إلا حيلة من الحكومة لتستولى عليهم ثم تجعل منهم جنوداً ، والواقع أن المدارس كما روى المؤرخون لم تكن تختلف فى شىء عن الثكنات العسكرية ، يحرسها الجند ويحولون دون اقتراب الأهالى من أسوارها العالية . ويحولون دون خروج التلاميذ إلا بصحبة ضباطهم أو بأجازة ناظر المدرسة . وكان صوت البوق يدوى

مثنى وثلاث يدعو التلاميـــذ إلى الذهاب إلى حلاق المدرسة أو المكتب أو حمام البلد أو النزهة أو إلى أن ينهضوا من نومهم لجأة أو يغمضوا عيونهم إذا جن الليل – وكان الضرب بالكرباج عقوبة مقررة فى المادة الثامنة من لائحة التعليم الابتدائى السارية فى ذلك الحين .

وتدل الإحصاءات على أن عدد تلاميذ مدرسة قصر العينى كان فى عام ١٨٣٢ كما ورد فى المراجع التاريخية[١] . ١٢٢ تلميذاً بينهم ٢٠٠ من المصريين و ٢٥٠ من غلمان المماليك و ١٥٠ من الأتراك والباقون من أجناس أخرى . وكان لها مكتبة كبيرة بها من ١٢ إلى ١٥ ألف مجلد معظمها فرنسى وإيطالى .

ومن طريف ما يذكر أن الحكومة لم تكفل تعليم الأولاد وإطعامهم وإيواءهم وكسوتهم فحسب بل تجاوزت ذلك إلى معاونة المتزوج منهم وهو نظام شبيه بالنظام المتبع فى معاهد العلم بالاتحاد السوفيتى فى وقتنا الحاضر. وكان الزواج يستلزم الحصول على إذن ، فإذا حدث أو تزوج طالب دون إذن قضى بضربه مئات من العصى « الزخم » والحكومة فوق هذا كانت تقوم بختان التلاميذ وقد قررت رسمياً أن تقيم لهم عند كل ختان حفلات طبل وزمر بإشرافها وعلى نفقتها ،

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ج ٢ .

حتى لقد ذهب بعض المؤرخين من الإفرنج إلى أنهـا كانت تحضر بمعرفتها الراقصات لإدخال السرور على التلاميذ وأهليهم .

وقد كانت الكتب قليـــلة الاستعمال وخاصة فى المدارس الخصوصية أو العالية . وكان تلاميذ مدرسة المهندسخانة ينقلون الدروس عن المعلمين فى دفاتر على غرار طلبـة الجامعات الآن معتمدين على أنفسهم ومسجلين ما يمكن حصره وتدوينه مما يسمعون . ولم يكن من الميسور استيفاء هذه الدفاتر وخاصة فيما تحتاجه الفنون من رسوم وأشكال . غير أن التلاميذ ما لبثوا أن استعانوا بمطبعة حجر بالمدرسة استخدموها فى طبـع المحاضرات . ثم توالى طبع الكتب حاوية كل ما يحتاج إليـه الطالب من شرح ورسوم وأشكال .

صبر وجلد ....

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل
(عنتره)

وقد حدث أن صرح محمد على الكبير بعزمه على إرسال أنجاله فى بعثة تعليمية إلى فرنسا ليتلقوا العلم بها ، وأصدر أمره بانتخاب عدد من نجباء التلاميذ ليدرسوا معهم ، ولتحقيق هده الغاية حضر إلى مدرسة المهندسخانة سليمان باشا الفرنساوى فاختار عددا من تلامذتها ومن بينهم على مبارك .

وكان ناظر المهندسخانة فى ذلك الحين « لامبير بيك » ، وكان لامبير حريصا على النهوض بالمدرسة ، فرأى أن من الخير استبقاء على مبارك ليكون معلما بها . ولكن الفتى آثر السفر رغبة فى الاستزاده من العـــلم وفى الحصول على مركز أكبر وأكرم ، وحاول لامبير اقناع الفتى بالبقاء ، وأوعز حين فشلت محاولته إلى المعلمين أن يقنعوه بذلك ، كما حاول اغراءه لتحقيق غايته بأن وعده بمنحه الرتبة حالا ومنحه المرتب المقرر ، إلا أن كل محاولاته ذهبت إدراج الرياح ، وأصر الفتى على السفر لأن سفره مع الأنجال كما يقول صاحب الترجمة فيما كتبه عن حياته « مما يزيدنى شرفا

ورفعة واكتسابا للمعارف ، فصممت على السفر ، مع انى أعلم أن أهلى فقراء ويعود عليهم النفع من الماهية ، وهم منتظرون لذلك . لكنى رأيت الكثير الآجل خيراً من هذا القليل العاجل » .

ويدلنا هذا التفكير على ما كان عليه الرجل منذ صباه من بُعد نظر وقوة إرادة ، وتلك ناحية بارزة فى خلق المترجم له ، وصفة مميزة لشخصيته . فقد صادفنا هذا الخلق فيه يوم أن أتيح له اثر خروجه من السجن عمل مربح ورابح مع مأمور الزراعة الحبشى عنبر أفندى . فنحن نراه رغم رضاء والده عن هذا العمل ورغم ارتياح الفتى لخلق مخدومه الذى كفل له الطعام والأجر المناسب ، نراه يؤثر التضحية بهذا الأجر وبتلك الوظيفة ويفضل السير فى معركة التعليم قدما ليبلغ بما ينال من علم ، المركز الأكبر والمكان الأكرم .

° ° °

انخرط الفتى على مبارك فى سلك طلبة بعثة الفنون العسكرية بفرنسا مع أنجال محمد على ، وحدد له كإخوانه مرتب شهرى مائتان وخمسون قرشاً ، جعل صاحب الترجمة نصفها لأهله ،تصرف لهم من مصر كل شهر ، وتلك كانت سنته معهم منذ دخلَ المدارس ، وهى سنَّة تدلنا على ما طبع عليه الصبى منذ نشأته من بر بوالديه ورعاية لذويه .

وأقام الطالب مع اخوانه بباريس سنتين فى بيت واحد ، حيث خصص محمد على لهم عدداً من المعلمين والمشرفين — وقد لبث على مبارك مع زملائه فى ذلك البيت سنتين ، وكان يشرف عليهم ناظر وضباط من الحربية الفرنسية — وقد كان طلبة البعثة خليطا غير متجانس ، فمنهم من كان يجهل الفرنسية كصاحب الترجمة وذلك بسبب طبيعة اختصاصه كمهندس وكزملائه من العسكريين ، ومنهم من كان يتقنها إتقانا بحكم عمله كمدرس يقوم على تدريسها بالمدارس المصرية ، وإذ كانت الدروس تلقى بالفرنسية فقد تعذر فهمها على من يجهل هذه اللغة من الطلبة مما اضطرهم للتظلم للناظر الفرنسى الذى لم يجد حلا سوى تكليف من يعرف اللغة الفرنسية من الطلبة بتعليمها لمن يجهلها ، وإحالة من يعرف إلى من لا يعرف ، وهو رأى يذكرنا بقصة جحا الذى وقف يخطب مرة فى المسجد فبدأ خطبته مستفسراً من الحضور « هل تعرفون ما سأقول ؟... » فقال البعض نعم نعرف ، وقال آخرون لا نعرف .... فقال جحا « ليقم من يعرف بتفهيم من لا يعرفه ...

وهكذا لم يجد رأى الناظر الفرنسى شيئاً فى حل مشكلة اللغة ، إذ أبى الطلبة الذين يتقنون اللغة أن يضيعوا وقتهم فى تدريسها لمن يجهلونها ، وهنا ندع المترجم له يقص علينا أمر هذه المشكلة ، وكيف توصل إلى حلها حيث يقول « ولما لم يصغ إلى شكوانا توقفنا عن

حضور الدرس أياما ، فحبسونا وكتبوا فى حقنا للعزيز محمد على ، فصدر أمره بالتنبيه علينا بالامتثال ، ومن يخالف يرسل إلى مصر محددا (أى مقيدا بالحديد) فخفنا عاقبة ذلك ، وبذلت جهدى ، وأعملت فكرى فى طريقة يحصل لى منها النتيجة ومعرفة اللغة الفرنسية ، فسألت عن كتب الأطفال فنبأونى عن كتاب فاشتريته واشتغلت بحفظه ، وشمرت عن ساعد الجد فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد وحرمت الرقاد ، فكنت لا أنام من الليل إلا قليلا ، حتى كان ذلك ديدنا لى الآن » .

وصاحب الترجمة فى هذا يعطينا مثلا آخر يؤكد ما لمسناه من خلق المثابرة التى يمتاز بها ، والتى كانت العامل الأكبر فى بلوغه غاية ما وصل إليه ، فبالمثابرة والعمل الدائب شق على مبارك طريقه ذللا إلى المجد ، فهو إذ يحدد الهدف يعمل جادا لبلوغه مستهينا بكل ما يصادفه من صعاب ، فقد رأيناه فى طفولته يتحرى أسباب الرفعة حتى إذا وجدها فى العلم انطلق ساعيا إلى موارده ، غير عابىء بما يصيبه من مرض وسجن وتشريد ، وشهدناه فى فتوته يعمل جادا للاستزاده منه ، فلا إغراء المنصب أو الرتبة التى عرضها لامبير ناظر المهندسخانة ، ولا نُصح سليمان الفرنساوى له بقبول البقاء بوظيفته كمدرس بالمهندسخانة ، لم يثنه هذا ولا ذاك عن التماس الرفعة بالسفر إلى فرنسا للاستزاده من العلم ، رغم حاجة

ذويه إلى كسبه ، وهو فى كفاحه وسهره يذكرنا بما تخلّق به كافة العظماء أمثال الشافعى وأبى حنيفة إذ كانا يقومان الليل والنهار ساهرين فى حفظ القرآن واجتلاء معانيه وفى استيعاب الأحاديث وا كتناه معانيها ومراميها ، وتوماس أديسون الذى كان لا ينام أكثر من أربع ساعات فى الليل ، ومصطفى كامل الذى كان يقاوم السهاد بل ويغالب المرض وهو بسبيل السعى والعمل الدائب لقضية بلاده التى جعلها هدفه الأسمى وأمله المرجى .

ويعود المترجم له فيحدثنا عن أثر مثابرته على الدرس والتحصيل فيقول « حفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب ، ثم حفظت جزءا عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضا ، وحفظت الاصطلاحات كل ذلك فى الشهور الثلاثة الأولى ، وكانت العادة أن يجرى الامتحان فى رأس كل ثلاثة شهور . وكنت مع ذلك ألتفت للدروس التى تعطيها (الخوجات) فأثمر الحفظ معى ثمرة كبيرة ، وصرت أول الرسالة كلها بالتبادل مع حماد (بيك) وعلى (باشا) إبراهيم . ولما حضر إلى باريس المرحوم إبراهيم باشا سر عسكر الديار المصرية حضر امتحاننا هو وسر عسكر الديار الفرنساوية مع ابن ملكهم وأعيان فرنسا وجملة من مشاهير النساء الكبار . فأثنى الجميع علينا الثناء الجميل ، وفرقت علينا المكافآت نحن الثلاثة ، وناولنى مكافأتى بيده ، وهى

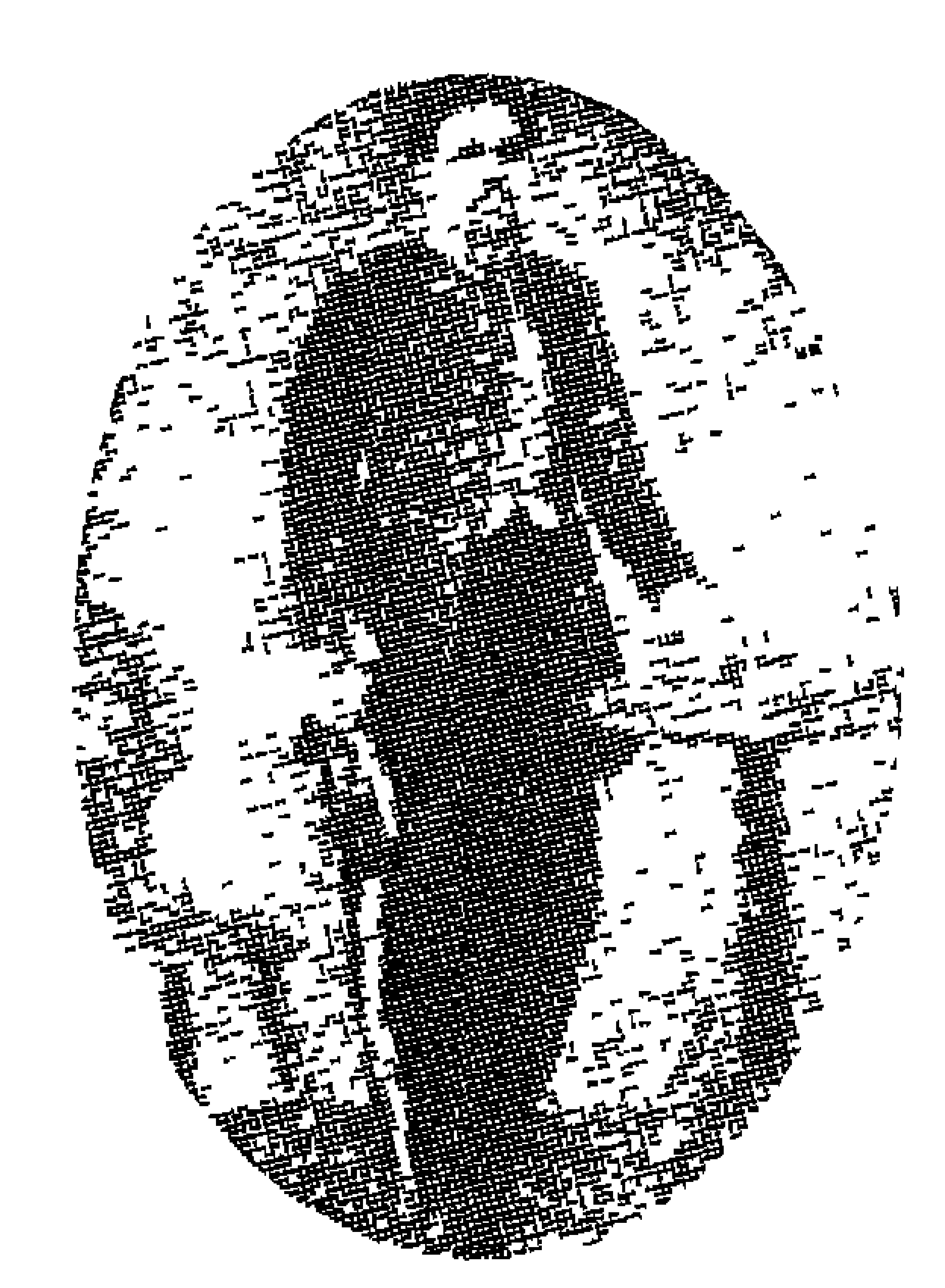
المكافأة الثانية وكانت نسخة من كتاب جغرافيا « مالطبرون » الفرنساوى بأطلسها هبة منه . ودعينا للأكل مع سر عسكرنا إبراهيم باشا — ولما رجع إلى مصر صار يثنى علينا عند العزيز وغيره ..... » .

ولقد لبث على مبارك عاكفاً على دراسته فى فرنسا قرابة عامين ألحق بعدهما بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بمدينة ميز بفرنسا ، وألحق معه حماد (بيك) وعلى إبراهيم (باشا) باعتبارهم الأوائل فى تلك البعثة ومنحوا رتبة الملازم الثانى .

وقد ظل الثلاثة فى تلك المدرسة عامين أخريين تعلموا فيها الاستحكامات الخفيفة والثقيلة والعمارات المائية والهوائية ، عسكرية ومدنية ، والألغام ، وفن الحرب ، وما يتصل به وبعد سنتين أدى الثلاثة امتحانهم فنجحوا بتفوق ، ثم وزعوا على فرق الجيش الفرنسى ، وألحق صاحب الترجمة بالفرقة الثالثة (الألاى الثالث) من المهندسين الحربيين فظل بها سنة أو أقل .

وقد كانت رغبة إبراهيم باشا أن يظل طلبة هذه البعثة وقتا كافيا حتى يتمكنوا من اتقان فنون الحرب والهندسة الحربية اتقانا تاما ثم يقوموا برحلات دراسية أخرى فى مختلف البلاد الأوروبية ليعودوا بعدها ، وقد هيأتهم دراساتهم لادخال كل حديث فى جيش مصر ، ولكن الأيام لم تمهله ، فعاجلته المنية قبل أن يحقق أمنيته .

وما أن تولى عباس الأول أريكة الحكم حتى سارع بدعوة طلبة هذه البعثة من الخارج ، وكان صاحب الترجمة مدينا لبعض الفرنجة بما يقرب من ستمائة فرنك ، وكانت الأوامر المتبعة فى ذلك الحين تقضى بعدم السماح لأحد بالعودة إلا بعد وفاء دينه ، وأن من يعد وهو مدين يسجن حال وصوله بالليمان ، فوقع الشاب على مبارك فى حيرة يكفى فى تصويرها أن نردد ما قاله فيما كتبه عن حياته « بقيت متحيراً ، وطلبت من رفقتى أن يسلفونى فقالوا ما عندنا مال نسلفك اياه ، وأنا أعلم تيسير بعضهم واقتدارهم . فقعدت فى محل إقامتى أفكر فيما أصنع ، وإذا بصاحب لى من الافرنج دخل على يدعونى للأكل عنده حيث أنى مسافر فوجد حالى غير ما يعهد . فسألنى . فأخبرته — فقال لا تحزن قل يا سيد يا بدوى . يا من تجيب الأسير خلصنى مما أنا فيه . فقلت له ليس الوقت وقت هزل . فقال هذا أمر هين لا يهمك ، ثم ذهب فغاب قليلا ورجع إلى بكيس رماه أمامى ، فإذا فيه قدر الدين مرتين ، وقال لى بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل إلى وفاءه ، ولم يأخذ منى سنداً بوصول المبلغ ، وقال أنا أكتفى بالقول منك وقد كان — وحضرنا إلى مصر فى تلك السنة وأرسلت إليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة » .



طالب بالبعثة العسكرية بفرنسا



جنود وضباط فى عهد محمد على



فرز الجنود الجدد فى عهد محمد على



الضباط يقسمون يمين الولاء تحت العلم

لقـــــاء ....

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما
يظنان كل الظن ألا تلاقيـــا

عاد على مبارك إلى مصر بعد أن درس فنون الحرب والهندسة الحربية وانتهت بانتهاء دراسته البعثة المصرية التى أقامها محمد على الكبير بعد أن قضت مشيئة عباس الأول بإغلاق مكتب البعثة هناك .

ولبث على مبارك وحماد وعلى ابراهيم أياماً بعد عودتهم بلا عمل حتى كان يوم دعاهم حسن باشا المانسترلى وكان يشغل منصب (الكتخدا) فى ذلك الحين وقد أحسن استقبالهم . وأنعم عليهم برتبة (يوزباشى أول) وعين على مبارك مدرسا (خوجة) بمدرسة طرا (طرة الآن) .

وشعر على مبارك وقد عاد إلى الوطن بعد أن أتم دراسته ، شعر بحاجته إلى زوجة يسكن إليها ، ومضى يتأمل فيمن تصلح لذلك ، وذكر الشاب أن معلمه فى الرسم بمدرسة أبى زعبل وكان يدين له بالفضل — قضى تاركا فتاة لا عائل لها ولا معين ، فتقدم على طالباً يدها — حتى إذا تم زواجه منها ، بدأ يفكر فى زيارة أهله بعد تلك الغيبة الطويلة ، ولما كان النظام فى ذلك الحين يقضى باقتطاع نصف

مرتب الموظف طيلة إجازته فقد عمد ناظر المدرسة برنستو بك وكان من المعجبين بعلى مبارك أن يخدم الشاب ويمكنه من زيارة أهله دون أن يحرم المرتب الذى يتقاسمه وذووه فاستأذن الناظر سليمان باشا الفرنساوى ليصطحب هذا الأخير الشاب على مبارك معه فى مأمورية بالوجه البحرى بجهة قريبة من بلده برنبال ، وكان له ما أراد .

وهنا ندع صاحب الترجمة يحدثنا بما سطره بيده فى تاريخ حياته ليجلو لنا أروع فصل من فصول تلك الحياة الحافلة بالمفاجآت حيث يقول :

« ذهبت إلى بلدتنا برنبال ، وكان أهلى قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة ، فوجدت أن أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض أخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا ، فطرقت الباب فقيل : من أنت؟ فقلت ابنكم « على مبارك »، وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ، ولا سمعت صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحد النظر ، وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية ، لابساً سيفاً وكسوة تشريف . وكررت السؤال حتى علمت صدقى ، ففتحت الباب وعانقتنى ، ووقعت مغشياً عليها ، ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرد ....

وجاء أهل البيت والجيران والأقارب ، وامتلأ المنزل ناسا ،

وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب ، ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام — وتريد عمل وليمة وهى فارغة اليد ، ورأيتها تبكى ، ففهمت حقيقة الحال ، فناولتها عشرة بنتو كانت فى جيبى، ففرحت وأولمت، فأقمت عندهم يومين ثم استأذنت ووعدتهم بالعود ورجعت إلى دمياط » .

علم وعمل

العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ....
والعلم يهتف بالعمل ، فان لم يجبه ارتحل عنه . .
(على بن ابى طالب)

ولم يمض الضابط المهندس على مبارك بين ذويه بعد غيبة دامت أربع عشرة سنة غير ثمان وأربعين ساعة ينطلق بعدها عائداً إلى حيث يتم مهمته التى كلفه سليمان باشا الفرنساوى بها ، فإذا أتمها كلف بالعمل مع جاليس بك ، ولكنه لا يكاد يتسلم عمله الجديد حتى يتلقى إشارة من عباس باشا الأول يطلب إليه الحضور فورا فى « الوابور » المتهيء للقيام .

وهنا يحدثنا المترجم عن هذه المقابلة وما جرى خلالها فيقول :

« وذهبت إلى جاليس بك فوجدت عنده سليمان باشا الفرنساوى قد سبقنى وكذا غيره من الأمراء والضباط ، فجلست بعد أداء الواجب ، وبينما فنجان القهوة بيدى إذا بمكتوب وارد بالاشارة من المرحوم عباس باشا بطلبى حالا فى الوابور المتهيء للقيام ، فاغتم لذلك جاليس بيك وداخلنى ما لا مزيد عليه من الخوف لما كنت أعلم مما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء ، وكان لى

اجتماعات بالخديوى اسماعيل وغيره منهم ، فهون على سليمان باشا الفرنساوى وقال :

« لعله يريد أن يجعلك معلما لابنه لأنه تكلم فى ذلك مرارا فلا تخف .... » .

والذى يعرف تاريخ أسرة محمد على ومدى ما أصاب المحتكين بها من أذى يرى أن لصاحبنا العذر فيما داخل نفسه من خوف ، فقد كان محمد على وسلالته من الفظاظة والقسوة بحيث لا يؤمن جانبهم ، والذى يراجع تقويم النيل لسامى باشا يجد فى الأوامر اليومية فى هذا الباب حقائق أغرب من الخيال ، يجد أوامر منه بضرب بعض مأمورى المراكز بالنبابيت فى سوق البلد العمومى ، ويرى أسلوبه مع المديرين كمدير الرزنامة الذى هدده محمد على بقطع رقبته وإلقاء جثته فى النيل إذا عاد للتخلف عن الحضور لعمله مبكراً ، ولم يكن ثمة ما يحمى صاحب الظلامة من غدر الحاكم ، فليس هناك قانون ولا مجلس تشريعى ، لذلك كان الناس يؤثرون دائماً الابتعاد عن الحكم والحكام ويفرون من أفراد أسرة محمد على فرارهم من الأسود الضوارى .

وقد كان الشعور بالخوف من الأسرة الحاكمة يدفع الضعاف إلى التماس رضاء أفرادها ، فيتوسلون بالوشايات للإيقاع بمن يخشونهم

قبل أن يوقعوا بهم ، فكانوا كجلادى الثورة الفرنسية شعارهم « ارسل عدوك إلى المقصلة قبل أن يرسلك » وقد لمس صاحب الترجمة من ظلمهم الكثير ؛ فقد كانوا سبباً فى طلاقه من قريبة طوبصقال ، وفى إرساله فى الحملة الانتحارية التى سيقت إلى البلقان ، وفى فصله من الخدمة مراراً بوشاية اسماعيل صديق ، ولا ريب فى أن إقدامه على إثبات هذه العبارة « فقد كنت أعلم بما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الإيذاء » فى كتابه الخطط التوفيقية فى وقت كان فيه عضواً فى النظارة تعتبر جرأة يحمد عليها أو هى على الأقل تعبير صريح أفضى به الرجل بتأثير ما صادفه وما شاهده من آثار الغدر والظلم الذين سادا فى ذلك العهد .

سافر على مبارك إلى العاصمة حيث مثل بين يدى عباس الأول الذى طيب خاطره وأخبره أنه اختاره مع حماد وعلى ابراهيم لامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس ، إذ كان الكثيرون منهم ضعافاً فى مادتهم ، وكان عباس الأول مهتماً بتصفيتهم واستبقاء الأصلح منهم وفى هذا يقول المترجم « وشرط علينا ألا نتكلم إلا بالصدق ولو على أنفسنا ، وإذا عثر على أن أحداً منا كذب فى شىء فجزاؤه سلب نعمته وإلباسه لبس الفلاحين ، وسلكه

فى سلكهم ، ثم حلّفنا على ذلك واحداً واحداً فحلفنا ، وحينئذ أنعم علينا برتبة الصاغقول أغاسى (الصاغ) وأعطانا نيشانات الرتبة ، وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب فيها ثلاثة أحجار من الماس ، وخرجنا فرحين ، واشتغلنا بما نيط بنا على الوجه الأتم ، وسافرنا معه إلى الجهات القبلية وصار امتحان المهندسين وتعويض (استبدال) كثير بآخرين من أرباب المعارف الذين تربوا فى المهندسخانة . وفى هذه الفترة أحيل علينا الكشف على شلال أسوان لبيان الطريق الأوفق لسير المراكب فاستكشفنا ذلك . وقدمنا جرنالا ورسماً فأتى على الغرض المطلوب . وإذ كنا بأسيوط أمرنا بالذهاب إلى منفلوط لبيان ما يلزم عمله فى تحويل البحر عنها فتوجهنا مع الكاشف جمال الدين كبير هذه المهنة ، وقررنا ما يلزم إجراؤه لمنع هذا الداء العضال عنها ، فأجرى ذلك وحصلت نتيجته . ثم لما عدنا إلى المحروسة صدر الأمر بتوجيهنا إلى القناطر الخيرية للمشـــورة مع موزيل بيك باشمهندسها فيما يلزم عمله لتسهيل سير المراكب بها ومنع العطب عنها فإن الخطر كان متتابعاً فيها لشدة التيار هناك ، لأن القناطر كانت قد قاربت التمام ولم يبق إلا فتحات الوسط فكان كثير من المراكب يتعطل إن لم يعطب . وكان موزيل بيك قد أبدى رأياً بعمل ترع تمر فيها

المراكب وقدمه للمرحوم عباس باشا فلم يوافقه لما فى ذلك من كثرة المصرف (المصروف) وهذا هو السبب فى تعييننا ، فبالتبادل حصل اتفاقنا على استعمال وابورات تسحب المراكب بالارغاطات ، وعرض عليه ذلك فأعجبه وأجرى به العمل وأبطل التصميم الأول وكان كثيراً ما يحيل علينا أشغالا ترد من الدواوين مما تتعلق بالهندسة فنقوم بها . . . . » .

إصلاح فى تدبير

قليل المال تصلحه فيبقى
ولا يبقى الكثير مع الفساد

وما أن انتهى المهندس على مبارك من مهمته فى اختيار المهندسين ، وإحلال الصالحين منهم محل الضعاف ، وفرغ بعدها من مهمة تيسير الملاحة بالنيل ، حتى أسندت إليه مهمة أخرى تختلف عن الأولى ، مهمة ترتيب المدارس الملكية والمرصد ، وقد كان المقدر فى ميزانية البلد فى ذلك الحين لتلك المهمة نحو عشرين ألف كيس ، ولما روى كثرة المقدر لهذا الباب طلب عباس الأول إلى على مبارك ورفيقيه إعادة النظر فى هذا الأمر فتداول مع صاحبيه ، ولما لم يتفقوا على رأى انفرد هو بإعداد مشروع بلغ اعتماده ألف كيس ، وقد راعى صاحب الترجمة فيه احتياجات البلاد وطاقتها ، واقترح أن تكون جميع المدارس الملكية فى محل واحد وتحت إدارة ناظر واحد ، واستبعد « المرصد » إطلاقاً من الميزانية ، وخاصة أنه لم يكن ثمة من يصلح للقيام بهذا العمل من أبناء البلاد . على أن استبعاد على مبارك المرصد لم يكن إلا وقتياً ريثما يعد الرجال الذين يصلحون للعمل

به ، ولهذا نراه يقترح فى مشروعه إيفاد بعثة إلى الخارج لدراسة علم الفلك ، ليقوم أعضاؤها بعد عودتهم بإعداد المرصد وإدارته ، وقد رشح لذلك ثلاثة هم محمود الفلكى (باشا) الذى كان إذ ذاك ضابطاً برتبة الصاغقول أغاسى ، واسماعيل الفلكى ، وحسين ابراهيم (بك) ، وكانوا من نجباء التلامذة الذين أتموا دراستهم .

عرض على مبارك المشروع على رفيقيه فى أول الأمر فرفضاه فاقترح عليهم الاحتفاظ به مؤقتاً فإذا لم ينتهوا إلى غيره قدموه ، وقد اتفقوا على ذلك ، وكان ما توقعه الرجل ، فقد بادر عباس الأول بسؤالهم عما أعدوه ، فقدموا مشروع على مبارك الذى أعجب عباس الأول لما رآه فيه من أفكار مبتكرة وتحقيق لأهم الأهداف بأقل نفقة ممكنة ، وإذ لاحظ أن هذا المشروع يقوم على رأى على مبارك وحده وأن زميليه لم يوافقا عليه ، رأى عقد مجلس خاص يقوم بفحصه ومناقشته بحضور لامبير بك . وبعد مناقشة طويلة استقر رأى الجميع على صلاحية مشروع المترجم له واستحقاق صاحبه رتبة الأميرالاى .

ولما عرض المشروع على عباس الأول بعد اعتماده من اللجنة التى شكلت لفحصه استدعى على مبارك وناقشه فيها ، وسأله عما يمكن الأخذ به من أسباب نجاحه . وفى هذا يقول صاحب الترجمة « سألنى

المرحوم عباس باشا عما أراه من نجاح هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به ، فقلت هذا رأيي فإن أحسن مدير إدارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح ، وإلا فإن الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن إدارتها من جاهل أو مفرط ، وتدوم على حالها إذا كانت بيد من يحسن إدارتها ، فعجب من جرأتى واستحسن كلامى ، وقال «فهل تضمن ذلك ؟» فقلت «كيف وقد ضمنه الجميع بالقرار الذى اتخذوه» ، فأحال على نظارتها وأعطانى الرتبة والنيشان .... » .

معـــــلم مثالى

كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته
« حديث شريف »

نال على مبارك بعد جهوده فى إصلاح الملاحة وتنظيم المدارس وتدبير ميزانيتها ثقة عباس الأول ، فمنحه رتبة الأميرالاى وأسند إليه إدارة المدارس الملكية وفى مقدمتها مدرسة المهندسخانة وما يتبعها ، وكلفه فوق ذلك بالإشراف على تعيين معلمى مدرسة المفروزة وترتيب منهجها واختيار الكتب اللازمة لها ، وقد كان صاحب الترجمة يقوم مدة نظارته بتأليف الكتب اللازمة للمدارس بنفسه بالاتحاد مع بعض المعلمين وقد أعد لمدرسة المهندسخانة مطبعة حروف ومطبعة حجر ، وقام بطبع عشرات الألوف من الكتب اللازمة للمدارس الحربية وفرق الجيش (ألايات الجهادية) .

وكان فى مقدمة ما أولاه صاحب الترجمة اهتمامه، عمله على أن يكون دائم الصلة بالتلاميذ ، فكان يشرف بنفسه على تعليمهم ومأكلهم وملبسهم وفى هذا يقول «كنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب . وألاحظ المعلم كيف يلق

الدرس وكيف يؤدب التلامذة . ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين فى القيام بما عليهم كما ينبغى . . . . » .

ولم يكتف المترجم له بالإشراف على تعليم تلاميذه ورعاية شئونهم، بل هو يذهب إلى فرض دروس على نفسه يلقيها عليهم فى مواد الطبيعة والعمارة . ويؤلف فى العمارة كتاباً ظل متبعاً فى التعليم بالمدارس وقتا طويلا .

وقد أثمرت عناية المترجم بالتعليم أطيب الثمر وهو فى هذا يقول « وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة وقاموا بمصالح كثيرة وحصل بهم النفع العظيم وترقى جمع منهم إلى الرتب العالية ، وشاع الثناء عليهم فى المعارف والآداب وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التى أجروها ، وأصبح لكثير منهم معرفة باللغة الفرنساوية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا فى أوروبا ، وخرج منهم معلمون متقنون فيها وفى غيرها . وكان أمر المدارس كل حين لا يزيد إلا صلاحاً ولا التلامذة إلا نجاحاً ولا المعلمون إلا اجتهاداً » . ويستطرد على مبارك فيما كتبه فيقول « وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة . وكان ما يحصل عليه التلامذة ومعلموهم من المكافآت والثناء والتشويق

والترغيب داعياً حثيثاً لهم لزيادة الجد والاجتهاد . وجرت بين المعلمين رابطة المودة والألفة ، وتربت الأطفال على الأخوة . وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة ، حتى وصلت النظارة للاكتفاء فى تأديب من فرط منه أمر بالنصيحة واللوم . وانقطع الشتم والسفه . وكاد يمتنع الضرب والسجن ، وبالجملة كانت أغراضى فيهم أبوية ، أنظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولادة ، وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية ، وقد تحقق لى نتيجة ما صرفته من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم .... » .

هذا ما ذكره صاحب الترجمة فيما سجله عن حياته فى « الخطط التوفيقية » وهو يبين لنا فى جلاء كيف كشف ذلك المربى الصالح عن فساد الأسلوب القديم ، أسلوب الضرب والإذلال الذى اتسم به التعليم حتى ذلك الحين ، والذى كان من أثره عزوف الطلاب ونفورهم من المدارس التى كانت فى أساليبها وقسوة أحكامها أشبه بالثكنات العسكرية أو السجون — ثم هو يضرب بما قام به بنفسه رغم كبر منصبه، أروع مثل لما يجب أن يكون عليه الراعى الصالح من حدب على أبناء وطنه وعمل دائب لتيسير العلم لهم ورعاية شئونهم .

أحقـــــاد . . . .

وما عجبت لدهر ذبت منه أسى
لـكن عجبت لضد ذاب من حسد
تدور هامته غيظاً على ولا
والله ما دار فى فـكرى ولا خلدى

(جمال الدين بن نباته)

وأثار نجاح على مبارك وما لقيه من تشجيع عباس الأول حفيظة حساده ، فما أن قضى عباس وخلفه سعيد حتى وجد الحاقدون فرصتهم مواتية ، فرموه لديه بالوشاية والدسيسة ، فكان أن أقصاه سعيد عن عمله ، وبعث به ضمن الحملة التى أرسلت مع أحمد باشا المناكلى إلى الدولة العثمانية عام ١٢٧٦ هجرية لمؤازرتها فى حربها مع الروس .

وسافر على مبارك إلى الاسكندرية فى طريقه إلى تركيا للقيام بما فرض عليه ، وقد ودعه تلاميذه وداعاً رائعاً ، حسبنا أن نورد ما ذكره صاحب الترجمة فيه ، وما سطره بيده من ذكريات رحلته الشاقة حيث قال « وخرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قهراً عن ضباطهم ، ووقفوا بساحل البحر أمام السفينة التى نزلت فيها

للسفر إلى الاسكندرية ، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الولد
على والده ، حتى بكت عيني لبكائهم . ولكن انشرح صدرى لمشاهدة
ثمرات غرسى وآثار تربيتى ، فحمدت الله ، ثم سافرت بمعية أحمد باشا
المناكلى ، فأقمت فى هذه السفرة قريباً من سنتين ونصف . وقد لطف الله
بى . وأحسن إلىّ ، ورد كيد الحاسدين فى نحورهم . فإنى وإن قاسيت
فيها مشاق الأسفار وما يلحق المجاهدين من الإرجاف والاضطرابات
والحرمان ، لكننى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها وعرفت أناساً
كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية — فإنى أقمت
أربعة أشهر بالقسطنطينية ، اشتغلت فيها بتعلم تلك اللغة ، كما أنى أقمت
عشرة شهور فى بلاد القرم كان يحال على فيها أمر المحاورة بين
المسكوف (الروس) والدولة العثمانية ، وأقمت ثمانية شهور فى بلاد
الأناطول ، أغلبها فى مدينة كموشخانة ، أى (بيت الفضة) ، لوجود
معدن الفضة هناك ، وهى مدينة عامرة على رأس جبل ، وكان منوطاً
بى وأنا بها تسهيل سوق العساكرة (التجنيد) من مدينة طرابزان
الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرض روم ، وكان ذلك فى وقت
الشتاء وشدة البرد ، والثلج الكثير هناك ، مع صعوبة ما فيها من
العقبات ، ما بين جبال شاهقة وأودية منخفضة ، فقاسيت من ذلك
شدائد مهمة ، وأهوالا مدلهمة ، وكنت أباشر كل فرقة فى سلوكها

بنفسى ، لا يصحبنى غير خادمى وجمعت المصابين بالبرد ، وجعلت لهم اسبتالية بمدينـة كموشخانة ، وهيأت مفروشاتها ولوازمها بعضها بالشراء والبعض من طرف أهالى المدينة .

ولاشتغال الحكماء بالآلايات استعملت فى مباشرة المرضى رجلا مكيا له إلمام بالحكمة ، وسلكنا فى المعالجة عادات أهل تلك الجهة ، فأثمر ذلك ثمرة عظيمة ، حتى إذا تهيأنا للسفر شهد لى بحسن المسعى أعيان المدينة وأكابرها من القاضى والعلماء والأمراء ، وكتبوا بذلك مضبطة ووضعوا شهادتهم وهى عندى إلى الآن وعليها أيضاً ختم خالد باشا مأمور سوق العساكر العثمانية ، إلى غير ذلك من فوائد الأسفار على ما بها من الآصار ، وكنت وأنا فى المدارس قد لحقنى الدين بسبب ما احتجت إليـه فى تنظيم بيتى على حسب ما تقتضيه وظيفتى . وكذا ما صرفته على ثلثمائة فدان أبعادية أحسن إلى بهـا المرحوم عباس باشا بلا واسطة . فلما سافرت تركت ماهيتى للدين فوفته ، واقتصرت على ما كان يصرف لى من التعيين ، وقد كفانى وقام بجميع لوازمى وزاد منه ثلثماية جنيه حضرت بها إلى مصر ، وأيضاً فإن رفقتى الذين نشأت معهم كحماد بيك وعلى باشا ابراهيم كانوا قد رفتوا من الخدمة فى مدة سفرى فلو بقيت للحقت بهم .... » .

زواج وفراق

إذا ما عتبت فلم تعتب
وهنت عليك فلم تعن بى
صدقت فلو كنت ماء الحيا
ة اعفت الورود ولم أشرب
(بديع الزمان)

وكان صاحب الترجمة قد تزوج كما أسلفنا بابنة معلمه فى مدرسة أبى زعبل بعد أن توفى أبوها وتركها دون عائل ، فاختارها صاحب الترجمة لما رآه من حالها ، ولما يشعر به نحو أستاذه من عرفان بالفضل، ولكن حياته معها لم تدم طويلا فقضت ، وقد أسف لموتها كثيراً، ثم تزوج بعدها بقريبة لأحمد باشا طوبصقال ، وكان زواجه منها قبل سفره فى الحملة التى أرسلت لمؤازرة الدولة العثمانية فى حروبها ضد روسيا — وهنا يسرد لنا المترجم له قصة زواجه الثانى فيما كتبه فى حياته فيقول « وتزوجت قبل سفرى هذا بعد موت زوجتى الأولى بقريبة أحمد باشا طوبصقال . وكانت ذات مال وعقار وكانت يتيمة غرة بمنزلة الطفل الصغير ، لا تحسن التصرف ولا تميز الدرهم من الدينار ، مع كثرة إيرادها وتعدد أملاكها وكان جميع أمرها

بيد غيرها ، والسبب فى ذلك أن أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب أفندى ، فماتت عنده الأم ، وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة . فتزوج بامرأة أخرى ، فكانت زوجته الجديدة قيمة البنت كأمها ، وكانت المرأة لا تطلعها على شىء ، ولا تمكنها من شىء . فلا تفعل ولا تقول إلا حسبما تريد منها هذه المرأة . فلما دخلت بها خافت المرأة ومن معها أن أطمع فى أموال هذه اليتيمة ، أو أعرفها بحقوقها فتطالب بها ، وتنزعها من أيديهم فأساءوا عشرتى ، وبالغوا فى إساءتى إلى حالة لا تتحمل ، وغاية لا تتصور ، حتى مللت وملت بعد أشهر قليلة إلى العزلة عنهم بزوجتى ، فازداد بالمرأة الخوف من انتزاعى ما استحوزت عليه من مال هذه اليتيمة ، فتوسطت هى بجلي أفندى الكلشنى إلى والدة المرحوم عباس باشا ورمى بى عند حسين باشا المانسترلى ، وأغرى بى أغوات السراى ، حتى داخلنى الخوف واشتد بى الكرب ، واتسعت القضية ودخلت المرأة المذكورة إلى سراى الوالدة المشار إليها بعرضحال زورته عن لسان زوجتى بالشكاية منى كذباً . فلما وقفت المشار إليها على الحقيقة صدر أمرها بإعطائى زوجتى . فعند ذلك اصطنعت الكافلة المذكورة بمعونة جلي أفندى وأعوانه وثيقة جردوا فيها اليتيمة من جميع أملاكها ، وأشهدوا عليها بدين جسيم لكافلها ، ووضعوا عليها شهادة جماعة

من الترك ، بخط الدرى كاتب المحكمة الكبرى . وأنا لا أعلم بشيء من ذلك ثم أخرجوها لى مجردة مما عليها إلا ثيابها مع أثاث قليل . فاقنا أياماً فى راحة وكانوا قد دسوا لها من قبل أنى أغدر بها وأقتلها استعانة بذلك على تجريدها من أملاكها بإيهامها أن هذا أمر ظاهرى أرادوا به حفظ أموالها وأملاكها من تسلطى عليها وانتزاعى لها ، ويبقى ذلك عندهم إلى حين تريده فيكون لها ما تشاءه حين تأمن غائلتى . ولما ذهب خوفها وأمن روعها ولم تجد منى تطلعاً لشيء من ذلك ولا أثرا مما خوفوها به أخبرتنى بالحجة التى جردوها بها ، وأنها تركت حليها هناك وطلبت منى الإذن فى التوجه إليهم لتأتى به حيث لم تجد شيئاً مما كانت تخافه ، فلقت لها أن ذلك لا يجدى ، وهذه حيلة تمت عليك ، فلم تسمع وذهبت ، ورجعت خالية اليدين ، باكية العينين ، حزينة آسفة على ما تم عليها من الحيلة ، فحملتنى الرأفة على أن أسعى لها فى استخلاص حقها ، فقدمت فى ذلك عرض حال بصورة الواقعة للمرحوم عباس باشا ، واتسعت القضية ونظرت فى الدواوين والمجالس ودخل فيها القاضى والمفتى ، ولما صححها الحق دخل فيها جلبى أفندى بالوسائط ، حتى خوفنى الكتخدا بالنفى إلى السودان إن لم أكف عن هذه القضية . وبعد طول النزاع تممها بالصلح ، فرجع لها العقارات والأوقاف وضاع عليها المال ، وبطل

عنها الدين ولم أصل إلى هذه الغاية إلا بعد أن قاسيت فى ذلك الشدائد والأهوال وعجائب الأحوال ما لو وصفته لطال الشرح واتسع المجال . وقد بنيت بيتها من مالى ، وصرفت عليه نحو ستمائة كيس وكان موقوفاً عليها ، فأرادت اشتراكى فيه معها فى نظير ما صرفته ، وكان ذلك لها بمقتضى شرط الواقف فقبلت ، ودخلت معها فى الوقفية وكتبت الوثيقة بمحضر من العلماء والأمراء والأعيان ، فلما كنت فى الآستانة دخلت عليها كافلتها المقدم ذكرها ، وقالت لها إن الرمل أخبر بأن زوجك يموت فى سفره وصدق على ذلك جماعة من حواشيها وحسنوا لها إبطال الحجة المتضمنة حصتى فى وثيقة البيت ، ثم لاذوا بجماعة من أصحابنا الذين لنا عليهم المعروف ليشهدوا لهم بأن الحجة مزورة ، وأن التى نطقت يوم كتابة الحجة إنما هى أختى تمثلت بها فظنوها إياها ، وحملوها على أن تكتب فىَّ عرضاً يتضمن أنى أخذت أموالها ومتاعها ، ثم أرسلوه إلى ابن عمها فى الآستانة فكنت معه فى محل واحد، فأرانيه وأخذت نسخته وسلمته إليه وقلت لا ثمرة الآن فى المنازعة هنا فاحفظه عندك حتى نعود إلى مصر ، وهناك تظهر الحقيقة فإن مت قبل هذا فلها جميع ما يورث عنى ، فلما رجعنا إلى مصر عقدنا لذلك مجلساً حضره كاتب المحكمة والشهود وجمع من أعيان العلماء ، وجرى الحساب وهى حاضرة فى المجلس فثبت لى عليها

مائة وخمسة وعشرون ألف قرش عملة ديوانية ، غير ستمائة كيس التى صرفتها فى عمارة البيت ، فبعد ثبوت حق وظهوره تنازلت فى المجلس عن جميع ذلك ، ولم آخذ إلا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ما حصل ، وبإثبات تنازلى بعد الثبوت . ثم بعد أيام قلائل تركتها وخرجت من البيت ، ولم آخذ منه شيئاً حتى تركت جوارى اللوانى كن ملكى ، وطهرت نفسى مما نسبه إلى أهل البهتان ، وأرحت نفسى من تلك الوساوس والهواجس » .

وهكذا يضف صاحب الترجمة إلى خلقه العظيم خلقا ساميا وفضيلة كبرى ، فضيلة الزهد فيما بيد غيره والتضحية بالمال قل أو كثر فى سبيل عزة النفس وكرامتها .

أنواء وأعاصير . . .

النكد يربى عقولا نبيلة ويغذيها
(سنيكا)

عاد على مبارك بعد أن أدى مهمته العسكرية فى تركيا خير أداء ، فكافأه سعيد هو وضباط الحملة بفصلهم من الخدمة ، وهو تصرف لا يستغرب من يعرف خلق سعيد وأمثال سعيد ، ولقد لقى صاحب الترجمة بعد عودته كثيراً من المتاعب والصعاب التى أثبتها فيما سجله عن حياته حيث قال : « ثم بعد عودنا من هذا السفر الطويل خلى سبيل العساكر ولحقوا ببلادهم ، ورفت كثير من الضباط فكنت ممن رفت ، وسكنت فى بيت صغير بالأجرة مع أخ لى كنت تركته فى المدرسة عند السفر مع ابن أخ آخر ليتربيا فيها ، فطردا منها بعد سفرى ، ولم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعده فى مدة نظارتى ، ولم تحصل الشفقة عليهما إلا من سليمان باشا الفرنساوى فإنه أدخلهما فى مكتب كان أنشاه بمصر العتيقة على نفقته وشملهما رأفته ، ثم غرق ابن أخى فى البحر ، وبقى أخى إلى أن جئت فالتحق بى ، فكانت حالتى بعد سبع سنين مضت من عودتى من بلاد أوربا كحالتى عند

دعوتى منها ، وذهب ما رأيت من الأموال والمناصب والوظائف وجميع ما كسبت يداى ، ولم يبق بالخاطر غير ما فعل الناس معى من خير وشر ، وما أكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته حتى حلا لى التخلى عن الحكومة وخدمتها ، وغضضت طرفى عن التطلع للوظائف والمناصب ، وعزمت على الرجوع إلى بلدى والإقامة بالريف والاشتغال بالزرع والتعيش من جانبه ، وترك الاشتغال بالقيل والقال ، وقلت عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها .

وبينما أنا أتجهز للسفر إلى البلد على هذه النية صدر أمر بأن جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعة للفرز ، فحضرنا ، وكان المنوط بالفرز أدهم باشا واسماعيل باشا الفريق وجملة من الأمراء فكان أهم مايعتنون به معرفة عصر الإنسان ، وكانوا يعرفون السن بالنظر إلى السن ، فهالنى ذلك الأمر وثقل على ، وودت ألا أكون قد طلبت ، فلما وصلنى الفرز عافانى من ذلك أدهم باشا السابق معرفته بى ، وكتبت فى المختارين للخدمة فتعطلت عن السفر ، وبعد قليل تعينت معاوناً بديوان الجهادية ، وأحيل على النظر فى القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات وغيرها من ملحقات الجهادية ، وألحقوا بى كاتباً ، فاشتغلت بها زمناً وأتممنا جملة منها — وفى ذات يوم كان

اسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان إذ ذاك مشتغلا برسم بعض المناورات العسكرية فلم يحسن ذلك وتحير فى إتمامها فدعانى فرسمتها فى عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق ، فوقع عنده ذلك موقعاً حسناً وأثنى على ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا ، وطلب منى وضع اسمى على الرسم فقلت عافنى من ذلك ولا تذكرنى عنده فأرانى أن فى ذلك فوائد جمة ، وأنه عين الصواب . ثم لما عرض الرسم عليه وتكلم معه بما تكلم ، أمر بإبطال التحقيق ، وحفظ القضايا بالدفترخانة ، وإلحاق بمستودعى الداخلية فبقيت كذلك زمناً طويلا . وكان يحال على بعض القضايا — ثم دعيت إلى وكالة مجلس التجار ، فأقمت فيه شهرين ، وكان سلفى فيه رجلا من الأرمن له سند قوى سهل له به الوصول إلى المرحوم سعيد باشا — فرمى بى بما رمى . فرفعت من هذه الوظيفة وتأسف لرفعى التجار الوطنيون لما رأوه من البت فى القضايا على وجه الحق . فأقمت فى بيتى نحو ثلاثة أشهر . ثم تعينت مفتش هندسة نصف الوجه القبلى . فأقمت فيه نحو شهرين . ثم خلفنى فى ذلك على باشا ابراهيم — ثم دعانى المرحوم سعيد باشا لعمل رسم لاستحكامات أبى حماد ، ودعا على باشا ابراهيم للكشف على الجانب الغربى من النيل إلى أسوان ، فاشتغلنا بذلك مدة بلا ماهية . ولما تمت الرسم ذهبت إليه لعرض الرسم عليه ،

وكان فى طرا فلم أتمكن من ذلك . وصرت أتردد على طرا أياماً لهذا القصد فلم يتيسر . ثم قام إلى قصر النيل فترددت على ذلك الموضع أيضاً فلم يتم المقصود . ثم قام إلى الاسكندرية فتحيرت فى أمرى إذ كان لا يثبت فى مكان ، ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه فالتزمت الإقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه ، وطالت المدة وفرغ المصروف . ثم قدم إلى مصر فذهبت إليه فلم أتمكن من الدخول إليه ، فقال لى مأمور التشريفات كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة فى وقت من الأوقات نتمكن منه . وحضر على باشا ابراهيم أيضاً فاصطحبنى ، ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا ماهية ولا شغل مع كثرة التنقلات من بلد إلى بلد ، ومن موضع إلى آخر ، ثم لما كان ذات يوم فى الجيزة وقع نظره على فنادانى وكلمنى وسألنى عما صنعت فى الرسم فقدمته له ، فنظر فيه قليلا ثم قال ابقه حتى نجد وقتاً لإمعان النظر فيه . ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك . ولكن ربطت لى ماهية وبقيت فى معيته زمناً بلا شغل » .

ولا نخالنا فى حاجة إلى التعليق على ماذكره على مبارك فى تصوير فوضى الحكومة فى ذلك الحين ، وحسبنا أن نرى رجلا فى هذه المكانه وبتلك الكفايه لا يجد له بعد ذلك الماضى الجيد عملا مناسبا ، وهو حين يسند إليه بعض العمل نراه يضطر لا ستجداء مرتبه ، يقضى الشهر بعد الشهر متتبعا أثر الخديوى فى كل مكان حتى يشاء هذا فيأذن بصرف أجره الموقوف ..

فى محراب الترتيب والتهذيب

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا
أرأيت أكرم أو أجل من الذى
يبنى وينشىء أنفساً وعقولا
(شوقى)

لم يرتح على مبارك لما آل إليه حاله من بقائه بمعية سعيد دون عمل ما . وعلى الرغم من أنه كان يتقاضى مرتبه كاملا نراه يبدى تبرمه بتلك الحال ، وهو خلق يدلنا على ما كان عليه الرجل من أمانة ونزاهة فهو يطالب فى الحاح بالافادة من خدماته وفى هذا يقول : « بقيت فى معيته (سعيد باشا) زمناً بلا شغل ، إلى أن كنا مدة بمريوط ، وكان معنا المرحوم ابراهيم باشا فاخبرنى أنه صدر له الأمر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب ، وسألنى عمن يليق للقيام بهذا الأمر ، فعرضت نفسى لذلك ، فظن أنى أهزل لاعتقاده ترفعى عن هذه الخدمة . . . وقال أترضى أن تكون معلماً لهؤلاء ، فقلت كيف لا أرغب فى انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن. . . . وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى

ما وصلنا إليه ، فلما عرض ذلك على المرحوم ، أحال على تعليمهم فأصبحت معى اثنين من الأفندية ، ورتبت مواد التعليم ، والطريقة التى يلزم اتباعها ، وشرعنا فى التعليم ، فكنت أكتب لهم حروف الهجاء بيدى ، ولعدم الثبات فى مكان واحد كنت أذهب إليهم فى خيامهم ، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الأرض ، وتارة بالفحم على بلاط المحلات ، حتى صار لبعضهم إلمام بالخط ، وعرفوا قواعد الحساب الأساسية فجعلت نجباءهم عرفاء استعنت بهم على تعليم الآخرين ، فازداد التعليم واتسعت دائرته ، واستعملت لهم فى تعليم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر الحيل والعصا لا غير ، فكنت إذا أردت توقيفهم على عملية كتقدير الأبعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء ، أجرى لهم ذلك عملا على الأرض ، وأبين لهم فوائده وثمراته النظرية ، فكان يثبت فى أذهانهم ، حتى أن بعضهم كان يجربه أمامى فى الحال بلا صعوبة » .

وقبول صاحب الترجمة العمل كمعلم بالمدارس ، وهو الذى بلغ وتقلد من قبل المناصب الكبيرة ، وكان مديراً للمدارس الملكية ومنح من قبلها رتبة الأميرالاى التى كانت لا تمنح للمصريين فى عهده ، قبوله ذلك يكشف لنا بجلاء عن جوهر نفس ذلك الرجل ، وما هى عليه من عظمة حقيقية ، فهو يرى فى مهنة المعلم أكرم المهن ، ولا يأنف أن يقضى

الوقت يعلم الضباط والعسكريين القراءة والكتابة ، لأنه يؤمن بكرامة العلم ، ويعرف للمعلم مكانه وقدره .

وتفشى الأمية بين ضباط الجيش بالقدر الذى أشار إليه على مبارك ظاهرة تدلنا على ما كان عليه جيشنا فى ذلك العهد من انحطاط فى مستواه الثقافى والاجتماعى وشتان بين ما كان عليه الضابط المصرى فى ذلك الحين وبين ضباط جيشنا المظفر اليوم الذين يتخرجون فى كلية عالية فى مستوى جامعى رفيع أهلهم لخدمة بلادهم ليس فى قيادة الجيوش فحسب بل وفى قيادة الشعب عن جدارة وكفاية فى مختلف الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية .

وقد كان على مبارك مثل المعلم الصالح فهو لا يكتفى بالتدريس بل يعمد إلى إعداد الكتب للطلبة بنفسه ، وفى هذا يقول : « ووضعت كذلك كتاباً مختصراً جمعت فيه اللازم من الحساب والهندسة وطرق الاستكشافات العسكرية ، وسميته تقريب الهندسة، وطبع على مطبعة الحجر ، فانتفع به كثير من الناس خصوصاً فى الآلايات ، وتكرر طبعه ، وكنت جمعت أيضاً جزءاً فيما يلزم معرفته للضباط من فن الاستحكامات ، وسوق الجيوش وترتيبها ، ونحو ذلك ، ولكنه لم يتم ولم يطبع وقد ضاع منى . وكنت فى أوقات الفراغ أشغل الزمن بالمطالعة ، وأكتب تعليقات أستحسنها فى ورقات جمعتها بعد ذلك

فصارت كتاباً مفيداً فى فنون شتى ، مما يحتاج إليه المهندسون ، وبقى عندى إلى أن اطلع عليه بعض معلمى الرياضة فى المدارس الملكية وغيرهم أيام نظارتى عليها فى مدة الحكومة الخديوية الاسماعيلية ، فرغبوا فى طبعه ، فطبع بمطبعة المدارس ، وسمى تذكرة المهندسين ، وكان المباشر لمقابلته وطبعه أولا السيد أحمد أفندى خليل ناظر مدرسة المحاسبة يومئذ ، وبعده على أفندى الدرنده لى أحد خوجات المهندسخانة ، إلى أن تم طبعه ، وهكذا كانت جميع أوقاتى مشغولة بأمثال ذلك . وبعض مأموريات كانت تحال على . . . » .

فرج بعـــد ضيق

« إن مع العسر يسرا » .
(قرآن كريم)

سافر سعيد إلى أوروبا وشاء قبل سفره أن يتخلص من أغلب الموظفين الذين كانوا فى معيته . إذ لم يكن للموظف فى ذلك الحين كبر أو صغر ما يضمن استقراره وقد رأينا تنحية على مبارك عن منصبه رغم علو قدره ورفعة شأنه ورأيناه يستدعى ويقطع مرتبه ، ويصرف حسب ما يراه أمير البلاد . وهكذا رفت على مبارك للمرة الثانية مع من رفتهم سعيد — وكان صاحب الترجمة وقت أن فوجىء بالفصل من خدمة الحكومه قد تزوج بعد أن طلقت منه قريبة طوب صقال باشا . واشترى بعد زواجه الأخير بيتاً فى درب الجماميز وشرع فى بنائه ، فجاء فصله ضغثاً على أباله اذ وقع فى الدين ، وكادت تسوء عاقبته لولا أن قيض الله له من باب التجارة رزقاً أقام أوده حتى أعيد ثانية إلى الخدمة .

فقد بلغ من تدهور الحالة المالية واضمحلال شأن التعليم فى عهد سعيد ومن قبله فى عهد عباس الأول أن أغلقت مدارس كثيرة

وبيعت محتوياتها فى الأسواق وقد كلف بالإشراف على هذه العملية المرحوم اسماعيل باشا الفريق ، وكان جاراً فى السكنى لصاحب الترجمة ، فأشار عليه بإشغال فراغه بالاتجار فى مخلفات المدارس من أدوات ومعدات ، وطاف على مبارك بسوق بولاق فهاله ضآلة الأسعار التى تباع بها الأجهزة العلمية والكتب والآلات والساعات والعقاقير وغيرها . وكانت الحكومة تيسر دفع ثمنها ، فاشتغل على مبارك بالتجارة ، وحاول تكوين شركة لبناء المساكن ، ولكنه وجد إحجاماً من زملائه . وفى تلك الآونة قضى سعيد . وما أن تسلم اسماعيل مقاليد الأمور حتى استدعى على مبارك وألحقه بمعيته ، ثم عينه ناظراً للقناطر الخيرية ، وكانت هذه فاتحة عهد جديد سعيد ، بدأ فيه المصلح الكبير عمله فى أفق واسع ، خلف أثراً خالداً فى تاريخ البلاد عامة وفى تاريخ التعليم بوجه خاص .

وبدأ على مبارك عمله فى القناطر بإجراء تعديلات فى نظام عيون القناطر وتحويل الماء من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى مما كان له أكبر الأثر فى رى جانب كبير جداً من الأراضى المحرومة من الماء ، ثم انتدبه اسماعيل نائباً عن الحكومة فى حصر الأراضى التى أعطيت لشركة قنال السويس بموجب الاتفاق الذى تم مع فرنسا ، فقام بواجبه خير قيام مما حدا بالخديوى اسماعيل أن ينعم عليه برتبة

« المتمايز » وبالنيشان المجيدى الثالث ، كما أنعمت عليه الحكومة الفرنسية بوسام جوقة الشرف من درجة ضابط .

على أن دور على مبارك فى إصلاح التعليم لم يتخذ شكلا فعالا إلا من يوم أن أسند إليه الخديوى اسماعيل وكالة ديوان المدارس تحت رئاسة شريف باشا علاوة على قيامه بنظارة القناطر الخيرية .

الوزير المثالى

« نخبة الأمة صناع حضارتها فلا ترقى إلا بهم »
(جوستاف لوبون)

إذا رأينا وزيراً ينهض بأعباء وزارته ويسير بها فى ميدان العمل المنتج قدماً قلنا إنه وزير صالح . أما أن ينهض رجل واحد وفى آن واحد بإنشاء وزارات عديدة وإدارات مختلفة ، ويخلق بمفرده مرافق حيوية لا عهد للبلاد بها من قبل ، يكون فيها الوزير المهندس ، والوزير المعلم ، والوزير الضابط ، والوزير المحاسب ، والوزير المؤلف ، والوزير المصلح الاجتماعى . إذا صادفتنا مثل هذا الرجل لا يسعنا إلا أن نحنى الرأس إجلالا لعظمته وإعجاباً بعبقريته .

هذا ما كان عليه على مبارك الذى بدأ طالع السعد يلازمه ويلازم البلاد على يديه منذ أن ضمه الخديوى اسماعيل إلى معيته بعد أن ضاعت جهوده سدى فى عهد سابقيه عباس وسعيد ، ولم يلق مايستحق من جزاء أو تقدير .

فبعد أن عاد صاحب الترجمة من المهمة التى أوفده اسماعيل إلى باريس لأدائها ، أسندت إليه علاوة على إدارة القناطر الخيريه إدارة

السكة الحديدية وديوان المدارس وديوان الأشغال ثم نظارة عموم الأوقاف علاوة على عمله بمعية الخديوى الذى يفيد من جهوده فى كل ما يعرض له من أمر هندسى أو عسكرى أو تعليمى أو غيره .

وليس أدعى لجلاء الدور الخالد الذى قام به ذلك الرجل الفذ لدعم بنيان النهضة العلمية وإصلاح شؤونها الاجتماعية ، من أن نروى ما سجله صاحب الترجمة بقلمه فيما كتبه فى حياته حيث يقول : « ثم بعد قليل من عودتى (من باريس) أحسن إلى برتبة ميرميران وأحيلت إلى عهدتى إدارة السكة الحديدية المصرية ، وإدارة ديوان المدارس ، وإدارة ديوان الأشغال العمومية ، وفى شهر شوال من تلك السنة انضم إلى ذلك نظارة عموم الأوقاف ، كل ذلك مع بقاء نظارة القناطر الخيرية والتحاق برجال المعية ، فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح . فقمت بواجباتها ، وبسبب اتساع ديوان السكة الحديدية وكثرة أشغاله ، كنت أذهب إليه من بعد الظهر إلى الغروب للنظر فيما يتعلق به ، وقد أجريت فى تنظيم السكة ومحطاتها ، وجعلت من الصبح إلى الظهر لباقى المصالح ، وكنت قد تحصلت على الإذن بنقل المدارس من العباسية إلى القاهرة رفقاً بالتلامذة وأهليهم ، ولما كان يلحقهم فى الذهاب إلى العباسية من المشاق والمصروف الزائد ، فأحسن إلى المدارس بسراى

درب الجماميز ، التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى فاضل باشا ، فنقلت إليها التلامذة ، وأجريت تصليحات لازمة للمصالح . وجعل السلاملك للديوان ، ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى ، وجعل بها أيضاً ديوان الأوقاف وديوان الأشغال ، فسهل على القيام بها ، وكانت كثرة أشغالى لاتشغلنى عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشياً عند غدوى من البيت ورواحى » .

لائحة تنظيم المدارس :

ويحدثنا المترجم عن المدارس فى ذلك الحين وما قام به لتنظيمها فيقول : « وعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية ، وكانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتمه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته ، مع رداءة الحفظ فى عامة المكاتب المذكورة . فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة ، فحررت لائحة بتنظيمها وترتيبها على الوجه الذى هى عليه ، ودعوت إلى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء فنظروا فيه . واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه . وصدر الأمر الخديوى بالإجراء على حسبه ، ورتب مفتشون لرعاية العمل

بموجبه . وأنشئت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها , وانتخب لها المعلمون والضباط وعين لها سائر الخدمة ، ورتبت لها أدوات التعليم ، ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها ، وكثرت فيها الأطفال ، وأنشىء فى القاهرة والاسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب ، مثل مكتبى القربية أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكتب الجمالية ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفية ... » .

الأوقاف فى خدمة التعليم :

ولما كان التعليم يحتاج لنشره إلى أموال كثيرة فى وقت كانت تعانى فيه البلاد عجزاً أثقلها بالديون ، فقد عمد صاحب الترجمة إلى الإفادة من الأوقاف التى كان ناظراً لديوانها علاوة على النظارات العديدة التى كان ينهض بها فى وقت واحد ، فنراه يستثمر أموال الأوقاف فى بناء وإعداد أماكنها للمدارس لقاء إيجار يدفع لها ، وهو عمل ما أحرانا اليوم أن تنهض به لحل أزمة أماكن التعليم التى هى من عوائق سرعة نشره فثمة أراضى كثيرة وأماكن مهجورة، ومنازل مؤجرة بأجورة زهيدة يمكن بناؤها أو إعدادها كمدارس ومعاهد للتعليم . فتحل بتعاونها مع مؤسسة ابنية التعليم أزمة أماكن التعليم .

كذلك عمد على مبارك إلى استصدار إذن من إسماعيل بتخصيص

جانب من عقارات الأوقاف الخيرية لنشر التعليم ، وفى مقدمة هذه أطيان الوادى المعروفة بتفتيش الوادى بمديرية الشرقية ومساحته ٢٢ ألف فدان تقريباً والذى كان ضمن الأراضى التى بسط الملك السابق فاروق نظارته عليها ، وقد استردته وزارة الأوقاف بعد أن أقصى فاروق عن عرشه — وقد بين على مبارك ما بذله لتيسير نشر التعليم بأقل نفقة ، فيما سطره عن حياته حيث يقول : « ولأجل استفادة الأوقاف وتكثير إيرادها مع تخفيف المصروف على الحكومة كان بناء هذه المكاتب فى عقارات الأوقاف وعلى طرفها ، وربط لها على المكاتب إيجاراً يدخل خزينة الأوقاف ، وأجريت الإصلاحات اللازمة فى المكاتب القديمة ، فغيرت بعض مبانيها وأوضاعها الأصلية إلى حالة تصلح لما صارت إليه المكاتب من النظام ، وترتبت لها النظارة والمعلمون وأدوات التعليم ونحو ذلك ... » .

ولم يعمد صاحب الترجمة إلى إرهاق الأهلين بنفقات تعليم أولادهم كما كان الحال فى مصر إلى وقت قريب . كذلك لم يفتح الباب على مصراعيه ليعلم القادر وغير القادر مجاناً دون تفرقة ، بل نراه يختط فى هذا طريقاً وسطاً ، فهو يفرض المصاريف على الطلبة كل على قدر طاقته ، ويعفى الفقير منها مستعيناً فى ذلك بإيراد الأوقاف وهو فى هذا يقول : « وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس

والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة المنصرف على الديوان . فجعل على أهالي التلامذة المقتدرين شيء من النقود يؤخذ منهم برغبتهم كل شهر على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم ، استمالة لقلوبهم واستدعاء لرغبتهم ، وباقى المصروف يصرف من حاصلات الأوقاف الخيرية والموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات والمبرات وأطيان الوادى بمديرية الشرقية ، وكان قد أحسن على المكاتب الأهلية بهذه الأطيان وبعض أملاك آلت إلى بيت المال من بعض التركات . فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد الإيرادات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلامذة ، وكان القصد تعويد الناس على الصرف على أولادهم بالتدرج شيئاً فشيئاً ، حتى لا يبقى مع توالى الأزمان على الحكومة إلا ما يختص بالمدارس الخصوصية كالمهندسخانة والطب والإدارة ونحوها ، وأما باقى المدارس فيكون الصرف عليها من الأهالى والأوقاف والأملاك المذكورة ، إذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم ... » .

ويردف المترجم له بيان خطته فى التعليم بالإشادة بأثرها فيقول : « وقد تأسس هذا المشروع وثبت . وسرت فيه إلى أن انفصلت عن المدارس وحصلت منه نتائج حسنة ، وخرج من التلامذة الذين تربوا

بالمدارس فى مدتنا جم غفير توظفوا بالوظائف الخيرية الشريفة ملكية وحربية وانتفعوا وانتفع بهم . ثم لأجل تسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين وصون ما تعلموه عن الذهاب ، جعل بالمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كل ما يلزم من الكتب وأمشق الخط والرسم وغير ذلك ... » .

إنشاء دار العلوم

ولصاحب الترجمة فضل إنشاء دار العلوم التى كانت ولا زالت فى مقدمة المعاهد التى ساهمت فى نهضة التعليم ، وأعدت الرعيل الأول من رجال التعليم بالبلاد ، وقد فصَّل لنا المترجم قصة إنشائها حين يقول : « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم ، أمعنت النظر فى هذا الأمر المهم ، واستحدثت مدرسة دار العلوم ، بعد استصدار الأمر بها ، وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ورتب لهم طعام فى النهار للغذاء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ

العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم ، حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ، ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر وأعلن . حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك ، فاختير منهم بالامتحان جماعة قدر المطلوب ، وساروا فى التحصيل وأثمر ذلك المسعى ، وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك ، فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة ، بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمناً ، ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب ، كل حسب استعداده ، سوى من يؤخذ إلى غير المدارس من المصالح الحكومية ، وقُرر ذلك وعُلم بينهم ، فرغبت التلامذة فى التعلم ، واجتهدوا وحرصوا على التقدم ، وتحصلوا على مهمات الفنون ، وتمكنت الحكومة من توسعة دائرة التعليم بلا كبير مصروفات » .

و « دار العلوم » اسم كان يطلق فى الأصل على المدرج « الانفتياتر » الذى كان ملحقاً بالمكتبة القائمة بسراى فاضل باشا بالجاميز ، وكان صاحب الترجمة قد عمد إلى ذلك المدرج للانتفاع به فى إلقاء محاضرات

عامة فى مختلف العلوم والفنون وكلف بهذا نخبة من المدرسين من وطنيين وأجانب ، وكان يشرف على هذه المحاضرات بنفسه ويحضرها عدد من موظفى الحكومة وخاصة موظفو نظارة المعارف ولفيف من طلبة الأزهر وكانت فى أول أمرها أشبه بمحاضرات مؤسسة الثقافة الشعبية فى وقتنا الحاضر .

وقد شاء المترجم له أن ينظم الطلبة الذين يحضرون لسماع هذه المحاضرات للافادة منهم فى إعداد معلمين للغة العربية بالمكاتب الأهلية ، فبدأ بإلحاق عشرة من الطلبة الأزهريين بها حدد لهم فى بادىء الأمر خمسة وعشرين قرشاً كإعانة شهرية للطالب ، وكان مرتب مدرس علوم الأدب أربعمائة قرش ، كذلك كان مرتب مدرس التفسير والحديث ، أما مدرس الفقه على مذهب أبى حنيفة فكان ثلاثمائة قرش وكانت جملة ميزانية دار العلوم ٤٩٥٧ قرشاً شهرياً أى أقل من خمسين جنيهاً وهذا القدر يعدل مرتب مدرس واحد فى التعليم الثانوى فى وقتنا الحاضر .

على أن صاحب الترجمة عاد فاستصدر أمراً برفع مرتب طالب دار العلوم إلى مائة قرش شهرياً وهو أكبر مرتب كان يمنح لطالب علم فى ذلك الحين . وكانت غايته بهذا صرف الطلبة إلى العلم وتشجيعهم على الانقطاع له

الصحافة المدرسية

كذلك كان لصاحب الترجمة فضل إيجاد الصحافة المدرسية فى البلاد ، فهو أول من أنشأ لطلبة العلم صحيفة خاصة تحفل بكل ما يتصل بهم هى « روضة المدارس » التى أنشأها فى منتصف محرم عام ١٢٨٧ (١٧ فبراير سنة ١٨٧٠)[1] .

وقد جعل رفاعة بك رافع الطهطاوى مشرفاً على هذه الصحيفة وكان المترجم يكتب فيها بنفسه ، كما كان يشجع رجال العلم على الكتابة فيها فكانت تلك المجلة بمثابة مدرسة عملية يتدرب فيها المتعلمون على الكتابة ويعالجون فيها فن التحرير .

وقد ظهرت الصحافة المدرسية فى وقت كانت فيه صحافة البلاد فى طورها البدائى ، وكان أسلوب الصحف فى ذلك الحين رتيباً ركيكا وكانت قاصرة فى أغلب الأحيان على نقل الأخبار بأساليب عقيمة . فكانت الصحافة المدرسية بما حملت لقارئها من مقالات بأقلام نخبة من المتعلمين والطلبة مثلا يحتذى لمن شاء أن يدرس فن

---

(١) تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد عبد الرحيم مصطفى .

المقالة وأصول الإنشاء ، و « روضة المدارس » وإن لم تكن فى أسلوبها من الجودة بحيث ترقى إلى مستوى صحفنا اليوم إلا أنها كانت ولا ريب خطوة كبيرة فى سبيل تهذيب الأسلوب الصحفى وإعداد جيل صالح من الكتاب المجيدين .

وقد درجت المعاهد والمدارس منذ عهد على مبارك على إصدار المجلات التى يقوم الطلبة بتحريرها والتى تعتبر حقل تجارب لتغذية الصحافة عامة بنخبه ممتازة من الأقلام ...

إنشاء دار الكتب

يواجه زائر دار الكتب بأعلا درج دار الكتب تمثال أبى التعليم على مبارك يستقبل كل زائر ، أقامته الدار اعترافاً بفضل ذلك الرجل العظيم الذى لم يدع سبباً للنهوض بالتعليم فى بلاده دون أن يتوسل به ، وكان فى مقدمة أعماله الخالدة إنشاء دار الكتب ، التى يروى صاحب الترجمة قصتها إذ يقول : « ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية أنشىء محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض ، وصرف عليه من مربوط المدارس ، فجاء محلا متسعاً يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم . وقد كان الخديوى اسماعيل يرغب فى إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الميرية وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها ، وأمرنى بالنظر فى ذلك ، فوصفت لهم المحل الذى أنشىء فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام ، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة فجمعت من كل جهة ، وجعل لها ناظر وخدمة ، وترتب لها مغير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب

العربية وآخر لمباشرة الكتب التركية . ونظمت لها لائحة صار نشرها تؤذن بإباحة الانتفاع بها للطالبين ، وسهولة التناول للراغبين ، مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها ، فجاءت بحمد الله مع أنفع الإنشاءات ، وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب ، إذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع وتطرق الأطماع ، فإنها كانت تحت تصرف نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ، ولا يحسنون التصرف فيها ، ولا يقومون بواجباتها بل أهملوها وتركوها ، فسطت عليها عوارض متنوعة أتلفت كثيراً منها ، حتى صار السالم من الضياع مخرباً بعضه بأكل الأرض وبعضه بأكل الأرضة . وزاد أن تصرفوا فى أجودها بالبيع للأغراب بثمن بخس وحرموا الأهلين من الانتفاع بها من توالد على نظارة المدارس والأوقاف ... » .

وقد ألحق صاحب الترجمة بدار الكتب مكانا للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضية . وقد نقلت دار الكتب من سراى درب الجماميز إلى مبناها الحالى فى عام ١٩٠٤ .

إصلاح الأوقاف

ولقد كان من أثر اجتماع نظارتى الأوقاف وديوان المدارس بين يدى المترجم له أن وجه جهده للأفاده من مبانى الأوقاف فى تيسير الأمكنة المكاتب والمدارس، وتوجيه جانب هام من ايرادات الأوقاف لنشر التعليم ، وقد مهد المترجم له لغايته بضم كثير من الأوقاف التى كانت نهبا بين النظار إلى وزارة الأوقاف ، فتمكن بهذا من أصلاح مبانيها واستئجارها للمكاتب والمدارس ، هذا إلى ما حققه حسن استغلال العقارات من مبان وأطيان زراعية من تنمية ريعها وزيادة محصولها ، وهو فى هذا يقول : « ثم أن هذا النظر لم يكن قاصرا على المدارس وأوقافها ، بل حصل الألتفات لجميع الأوقاف من التكايا والمساجد وغيرها بالإصلاح والتجديد ، وكان ما بالأقليم من الأوقاف من أطيان وعقارات على كثرته غير ملتفت إليه ، فكان السالم من التلف من الأسبلة ونحوها مستعملا فى غير وجهه تحت أيدى غير مستحقيه ، فانتخب لها من طرف الأوقاف مأمورون من المهندسين الذين تعلموا فى المدارس ، وأرسلوا إلى الأقاليم للنظر فى أمر الأوقاف وضبطها ومعرفة ريعها وما يلزم لها من العمارات وتحصيل

إيراداتها وملاحظة مصروفاتها ، وجعل المندوبون للوجه البحرى تابعين فى إدارتهم للمأمورية طنتدا[1] ، والمعينون فى الوجه القبلى يخاطبون من الديوان ، فضبطوها وحرروا جداولها ، وفعل بها ما هو الأصلح لها فانتظم سيرها ، ونما ريعها ، ثم أن الذى كان متبعا فى العمائر بالمدن الكبيرة كالقاهرة والأسكندرية هو أجراؤها على طرف الديوان ، وكان لها معمارية وشغالة وعربات ونحو ذلك بمرتبات جسيمه شهرية ، ومصاريف كثيرة تزيد عن قيمة ما يحصل فيها من الأنشاء والعمارة ، فضلا عن الأتفاق . وكان يحصل من القائمين بأمرها الأهمال والتفريط فيها . وكان ما يجرى تعميره فى السنة مع عدم أتقانه وكثرة ما يصرف عليه قليلا بالنسبة للمحتاج للعمارة ، وكان الديوان لا يتمكن من الحسابات السنوية ، فبقيت عمارات كثيرة لم ينته الأمر فيها ولا فى حساباتها عدة سنين طويلة وكان الذى يعمر منها مع خفة بنائه ورداءة مونته يحول من أوضاعه الأصليه الحسنة إلى أوضاع سيئة ، فكنت ترى الدور المتسعة والمنازل الكبيرة حولت إلى حيشان وربوع يسكنها الكثير من الناس بحيث تحمل فوق طاقتها لزعم ولاتها أن فى ذلك تكثيرا لريع الوقف ، مع أنهم كانوا لا يورثونها إلا التخريب وإضاعة ما بها نحو

(١) طنطا .

الأخشاب ، وولاتها غافلون لا يعرفون إلا قبض الأجرة ، فكان ما يتلف سنويا من عقارات الأوقاف أكثر مما كان يعمر بأضعاف ، وهذا ضرر بيّن ، فحصل الألتفات إلى ذلك الطريق الموجبه لعمارة الأوقاف ، وكثرة ريعها وقلة مصروفاتها على الديوان ، فجعل فى أثمان القاهرة[1] مأمورون من المهندسين وكتبة ومعاونون[2] وصار الجباة تابعين للمأمورين ، وشدد عليهم فى الألتفات إلى ما نيط بهم ، بحيث أن من فرط فى أمر يجرى عليه ما يستحقه ، ففتحوا أعينهم ، ونصحوا فى سيرهم خوفا على أنفسهم ، فانصلح كثير من الأوقاف وحسنت أحوالها . ثم من أنفع الأعمال فى الأوقاف ماجرى فيها من أبطال جعل إدارة عمائرها على طرف الديوان ، وصارت تعطى بالمقاولة للمقاولين بعد النظر فيها من مأمورى الأثمان وباشمهندس الديوان وعمل رسوماتها اللازمة وتقدير نفقاتها للموافقة . وجعل لذلك لوائح واستمارات نشرت بينهم ، جعلت قدوة لهم فى الأعمال ، ثم قسمت أراضى الوقف الواسعة الخربة كالتى فى جهة السيدة زينب وخلافها على الراغبين يبنون فيها منازل وحوانيت وغير ذلك بحكر يقرر عليهم يدفعونه كل سنة ، وقرر فى الاستمارات أن الآخذ بالحكر

---

(١) أثمان القاهرة هى أقسام البوليس التى كان عددها بالعاصمة ثمانية .

(٢) تفاتيش الأوقاف الحالية .

يدفع لخزينة الأوقاف حكر عشر سنوات ثم يدفع الحكر سنويا .
فأنشىء من ذلك مساكن كثيرة كانت مطرحا للزبل والعفونات والأقذار فبعد أن كانت تجلب المضار للناس صارت نافعة تجلب ريعا كثيراً للوقف وتبدلت سيئاتها حسنات . »

هذا بعض ما سجله الوزير المثالى على مبارك من ضروب إصلاح الوقف وأسباب حسن استغلاله ، وهى جهود وإصلاحات لا زالت آثارها قائمة حتى اليوم .

تنظيم العواصم

ولم يحل قيام الوزير المصلح بأعباء ديوان المدارس والسكة الحديدية والقناطر الخيرية والأوقاف دون نهوضه فى ذات الوقت بأعباء نظارة الأشغال التى ألقيت على عاتقة فوق نظارته على كل هؤلاء ، فنراه يقوم بمباشرة تنظيم القاهرة تنظيما خطط فيه أكثر شوارعها وميادينها كما نراها الآن فشارع محمد على وميدانه بالقلعة ، وشوارع الأزبكية وميدانها ، وشوارع عابدين وباب اللوق ، وكل ما نراه اليوم من معالم العاصمة الكبرى ، إنما يرجع فضل تنفيذه إلى على مبارك الذى يقول فى هذا « جرى العمل على ذلك فظهرت كل هذه المبانى الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور . والفرح والسرور . وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح . ثم تبرع الخديوى إسماعيل على الراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المبانى المشيدة ، والبساتين العديدة . وناهيك بقصور الإسماعيلية دورها وبساتينها وشوارعها التى يجل الوصف عن محاسن بهجتها . وقد كانت أراضيها بين خلوات متسعة وتلال مرتفعة

وبرك منخفضة ولم يكن بها صالح للزرع ومأهول للناس إلا القليل فأنعم بها الخديوى بلا مقابل رغبة فى العمارة والنظافة وحسن الهيئة فكم زال بذلك عفونات وقاذورات ومشاق وصعوبات ، وزاد فى بهجة المدينة واكتسابها نوراً على نور ماحدثته شركة من الأفرنج بإذن من الخديوى نشر غاز التنوير[1] بها فى سائر شوارعها وضواحيها حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليها بأيامها ... » .

ويستطرد المترجم له فى بيان ما أجرى فى العاصمة من إصلاح فيجلو لنا الدور الذى قام به فى تيسير الإتصال بالشاطىء الغربى والجزيرة فيقول « ثم لأجل الأمن والتسهيل على الخاص والعام ، صدر أمر بعمل القناطر الحديد المعروفة بالكوبرى بين قصر النيل والجزيرة[2] على هذا الوجه البديع ، وعملت السكك المنتظمة فى بر الجزيرة . وحفت بالأشجار وفرشت بالأحجار الرقيقة المختلطة بالرمل لمنع الأتربة وتسهيل المرور إلى العمائر والسرايات والبساتين المنشأة هناك التى تجل عن الوصف . كما فعل ذلك فى جميع الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها لشركة من الأفرنج أيضا بعمل وابور الماء[3] الذى عم

(١) غاز الاستصباح الذى عممته شركة الغاز والكهرباء بعد ذلك . . ويستعاض عنه اليوم بالكهرباء .

(٢) كوبرى قصر النيل الذى أزيل عام ١٩٣٣ وأقيم محله الكبرى الحالى .

(٣) هى شركة مياه القاهرة التى أنهت حكومة الثورة امتيازها تنفيذا لسياسة التأميم الرشيدة .

جميع جهات المدينة حتى تمتعت الأهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقه ، وكل ذلك غير الأعمال الجسيمة التى أجريت فى جهات القطر مثل ما تجدد بالأسكندرية وما تجدد فى السويس من عمل الميناء والحوض والمحافظة وشركة الماء ... » .

وقد عنى المترجم له بانشاء دور للدواوين بكافة عواصم الأقاليم، وبذل جهدا لا يفتر لإقامة الجسور والقناطر وشق الترع وفى مقدمتها ترعة الإبراهيمية وترعة الإسماعيلية وهو فى هذا يقول« وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أوامرها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك،ضرورة تعلقها بديوان الأشغال،فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين علىّ مشغولا بالمصالح الميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا حتى لا أرى وقتا ألتفت فيه لأحوالى الخاصة بى، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار ولا سيما أعمال القنال المالح[1] التى كانت قد تمت،وكان الخديوى قد صمم لتمامها عمل مهرجان ودعا لذلك كثيراً من ملوك أوربا وسلاطينها وعظمائها . وهذه الحالة تستدعى استعداد السكك الحديدية وعرباتها وتهيئة المدينة لدخولهم فكنت مع النظر فى أحوال تلك الدواوين

---

(١) قناة السويس التى أقيمت حفلة إفتتاحها باشراف صاحب الترجمة.

مشغول الفكر دائم السفر فى مصالح هؤلاء المدعوين إلى أن انقضى جميع ذلك على أحسن حال ... » .

وقد كوفىء صاحب الترجمة لقاء جهده فى مهرجان القنال بنياشين عديدة من خديوى مصر ومن حكومات النمسا وبروسيا وفرنسا .

دسائس اسماعيل صدّيق

ويصادف على مبارك ما يصادفه كل مصلح من كيد الحاسدين ، فقد حدث أن اختلف المترجم له مع اسماعيل باشا صدّيق الذى كان ناظراً للمالية فى ذلك الحين ، وكان سبب الخلاف محاولة اسماعيل صديق ضم إيراد السكة الحديدية إلى المالية ، فأبى على مبارك أن يتم ذلك إلا بشرط تحمل المالية مصروفات ذلك المرفق ، وأن تخلى مسئوليته ، وأن يوافق الخديوى على ذلك ، فلم يرق ذلك اسماعيل صدّيق ، فسارع إلى الخديوى ووشى بعلى مبارك ، وكان من أثر ذلك أن نزعت منه إدارة السكة الحديدية ثم ديوان المدارس ، فالأشغال ، ثم الأوقاف ، غير أنه لم يلبث أن دعى بعد قليل لإدارة المكاتب الأهلية ، وتنظيم ديوانها ، فقام بإعداد الرسوم اللازمة لتهيئة أماكن لمكاتب الأرياف ، ثم أضيفت الأوقاف فالأشغال ثانية إلى عمله ، غير أن هذا لم يدم طويلا ، إذ عين الأمير حسين كامل نجل الخديوى اسماعيل ناظراً لهذه الدواوين وجعل على مبارك وكيلا ومستشاراً له .

ولم يكف اسماعيل صديق عن الدس لعلى مبارك ، وظل يشى به



اسماعيل صديق المفتش



حتى أفلح فى إقصائه ، إذ أدخل فى روع الخديوى اسماعيل أن كتاب (نخبة الفكر) الذى قام صاحب الترجمة بتأليفه بتكليف من الخديوى ، يحتوى على نقد شديد لحكومة الخديوى ، وأنه يهدف إلى تقبيح سياستها ،فرأى الخديوى حرمانه العمل دون المرتب، حتى كان يوم دعى فيه ثانية لتولى وظيفة«رئيس أشغال الهندسة بديوان الأشغال» فقبلها ، وقبول على مبارك الذى كان قبيل ذلك ناظراً أى وزيراً لعدة وزارات قبوله وظيفة عادية كهذه أمر قد يبدو فى نظر البعض مستغرباً ، ولكن الذين يعرفون خلق على مبارك ، وكيف رضى يوماً أن يعمل معلماً صغيراً يعلّم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة ، وكان قبلها ناظراً للمدارس الملكية ، يدركون أن الرجل لم يهتم يوماً بمظهر أو بمنصب ، ولكنه العمل ، والعمل لخير الوطن كان رائده الذى يهديه،وأمله الذى يرتجيه .

ولما أسند الخديوى اسماعيل نظارة الداخلية إلى ابنه توفيق وأتبع ديوان الاشغال لتلك النظارة ، اتخذ توفيق من صاحب الترجمة مستشارا له ثم عيّن مستشارا لابراهيم باشا نجل أحمد باشا أبان نظارته للأشغال بعد أن فصلت عن الداخلية وأصبحت نظارته قائمة بذاتها.

بين عهدين

ولم تكن الدسائس التى يحيكها أعداء على مبارك لتحجب الرجل أو تقصيه عن الحكم طويلا ، فقد كان له من أعماله الباهرة واصلاحاته الكبرى ماجعل عودته إلى الوزارة أمرا لا مندوحة عنه وهكذا نرى صاحب الترجمة يستدعى بعد شهور قليلة ليتسلم نظارتى المعارف والأوقاف فى عام ١٨٧٧ فى النظارة التى شكلت برئاسة نوبار باشا ، وكان الوضع فى مصر قبل تولى هذه النظارة اطلاق يد الخديوى فى شئون البلاد، فلما أساء اسماعيل حكم البلاد وأثقلها بدين كان من أثره تدخل الدول الأجنبية ، رأت هذه الدول فى عام ١٨٧٦ الحد من سلطان الخديوى ، حتى تستقيم أمور البلاد بما يمكن لها من أداء دينها لتلك الدول .

ويبين الوضع الجديد واضحا فيما ورد بالديكريتو ، الذى نص على أن الخديوى يريد عوضا عن الانفراد بالسلطة أن يكون للحكومة إدارة عامة على المصالح فيستعين الخديوى بمجلس النظارة ، فى تسيير المصالح ، وان يتكافل أعضاء المجلس فى جميع مهام البلد ، ويتداولوا ويصدروا قراراتهم بأغلبية ويقوم الخديوى بالتصديق عليها لتنفيذها .

وقد بدأت نظارة نوبار تدير دفة الحكم على ذلك الأساس ، وشرعت فى سداد الديون من ايراد البلاد ، ومن قرض أخذته من بنك روتشلد بلندن ، وكان مقدار ذلك القرض ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه انجليزى . دفع لقاء رهن أملاك الأسرة الخديوية من أراضى زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة ، وكان مبلغ إيرادها السنوى ٤٢٦ ألف جنيه انجليزى ، وجعلت لادارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين .

وفى هذا يقول صاحب الترجمة :

« وفى تلك المدة صرفت مافى وسعى فى توسيع دائرة المعارف ، فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنتدا (١) ومدرسة المنصورة ، وفى تكثير عدد المكاتب ، وترتيب المدرسين وما يلزم من أدوات وكتب ، واعتنيت بأمر الأوقاف ونشرت المعاوين للكشف عن الأماكن ، وبيان المتخرب منها والعامر ، وما يناسب استبداله وتجديده على حسب مايعود بالمصلحة على الأوقاف » .

ويحدثنا صاحب الترجمة فيما سجله عن عصره هذا حديثا يكشف به عن الظروف والملابسات التى دعت إلى تذمر الجيش وبلبلة أفكار

---

(١) طنطا .

الجماهير مما أدى إلى اجبار اسماعيل على التنازل عن أريكة الحكم وتولى ابنه توفيق فيقول :

« وكانت هيئة النظارة مساعدة للمعارف والأشغال العمومية كل مافيه التقدم . وقد اهتمت بتنظيم أمر الايراد والمصروف . وأبطلت من المغارم مايبلغ نحو مليونين من الجنيهات . ولكن ألجأتها ضرورة الاقتصاد إلى إلغاء بعض المصالح وقطع المرتبات الجارية على غير قانون ، كالأنعامات ومرتبات الاشرافات وتنزيل عدد الجيش إلى القدر الكافى لاحتياجات البلاد ، وبذلك أحيل كثير من ضباط العسكرية إلى المعاش . فأساءت هذه الاجراءات ونحوها كثيراً من الناس سيما ضباط العسكر ، وحصل اللغط بذم الهيئة والتنديد بأعمالها . وكثير القيل والقال حتى تجمع كثير من ضباط العسكر حول المالية يطلبون متأخراتهم ..... » .

ولقد كان من أثر اضطراب الأحوال فى ذلك الحين أن سقطت نظارة نوبار وخلفتها نظارة شريف باشا التى اختير كل أعضائها من الوطنيين ارضاء لشعور الشعب ، وبدأت نظارة شريف عملها باصدار لائحة لسداد الديون عرفت باللائحة الوطنية وقد أعدت بوضع يجعلها أكثر فائدة لأصحاب الدين استمالة لهم ، ولكن هذا

لم يكن ليرضى الدول الأجنبية الدائنة للبلاد وانتهى الأمر بسقوط نظارة شريف .

وفى ٢٧ يوليه عام ١٨٧٩ صدر أمر السلطان العثمانى باقصاء الخديوى اسماعيل عن أريكة الحكم فى مصر ليخلفه ابنه توفيق ، وفى عام ١٨٨٠ أصدر توفيق أمره إلى رياض باشا بتشكيل نظارة عين على مبارك ناظرا للاشغال فيها ، وكان لدولتى فرنسا وانجلترا حينذاك مندوبان يراقبان شئون البلد المالية هما مسيو بلنبر ومستر نارنج ، وقد خوّلا حق حضور جلسات مجلس النظارة الذى بدأ إدارة المصالح وسن القوانين ، وجعل أداء الأموال الأميرية على أقساط ، وتوسع فى ترتيب المعاشات للموظفين وأكثر من تعيينهم وعنى بالتعليم فضاعف ميزانيته .

علي مبارك المهندس

جلونا فيما أسلفنا دور علي مبارك المعلم، وكذلك ماقام به علي مبارك العسكرى، ثم أشرنا إلى جانب من جهود علي مبارك المهندس والآن نعرض للجانب الآخر والأهم من هذه الجهود.

لاحظ صاحب الترجمة لدى تسلمه زمام نظارة الأشغال فى نظارة رياض باشا أن جميع الأعمال تقوم على السخرة المعروفة فى ذلك الحين (بالمونة) فكان الفلاحون يساقون بالسياط لانشاء الترع والمساقى والمبانى، وكثيرا مايكون الدافع لهذه الأعمال مصالح خاصة لبعض الكبراء يحمّل الفلاح فى سبيلها الذل والمهانة والعمل الاجبارى المجانى.

ساء علي مبارك ذلك الوضع الجائر الذى ترتب عليه من جانب آخر فساد العمل وإهماله، فكان اول عمل بدأ به هو استبعاد نظام السخرة فى أغلب عمليات النظارة، ورصد للعمل ميزانية بلغت ستمائة ألف جنيه، وقسّم الديوان إلى إدارات وأقلام وقسّم الفروع إلى تفاتيش تشرف على أعمال المهندسين الذين بعث بهم صاحب الترجمة فى كافة بلاد القطر. واسند العمليات إلى مقاولين يعملون طبقا للمواصفات التى تقررها النظارة، ويشرف

عليهم فى ذلك مهند سوها ، وبهذا تم عمل عشرات من القناطر الهامة التى تحمّل بعض المنتفعين بها جانبا من النفقات تخفيفا عن كاهل الخزانة . وبنى بإشرافه دور الدواوين بالمحافظات والمديريات والمذبح (السلخانة) بالعاصمة ومستشفى قصر العينى ومدرسة الطب، وتعاقد مع شركة مياه القاهرة لانشاء عملية مياه بحلوان ، ونظم حماماتها وعين بها طبيباً ومأموراً ، وضاعف إنارة العاصمة ، وقام بعملية المجارى العامة فى الشوارع الرئيسية . وأوصل الماء إلى طريق الجيزة والجزيرة ، ورصف الطريق ونظم طريق شبرا ، وجدد الشوارع والميادين بالعاصمة ، وأقام بعض النافورات بميادينها الهامة وأنشأ منتزة النيل ، وبنى بالاسكندرية سراى البريد .

وكان فى مقدمة ماعنى به المترجم له تنظيم الرى بطريقة تكفل تحقيق العدالة فى توزيع الماء ، فكلف المهندسين بمراقبة ذلك ومنع المحسوبية والمحاباة اللتين كانتا أساس التوزيع قبلا . وقد كثر فى عهده تركيب المضخات البخارية لرى الأراضى ، وقد بلغت حينذاك ألفين وواحدا وثمانين مضخة (وابورا) قوتها ٢٤٥٨١ حصاناً بخارياً ، وإذ لاحظ زيادة عددها واستغلال أصحابها الفلاحين، هذا إلى استنفادها لمياه الترع مما حرم الكثيرين الانتفاع بالماء ، رأى وجوب تنظيم عمل هذه المضخات ، فأصدر لائحة بذلك كان لها أكبر

الأثر فى منع أسباب الشكوى وتحقيق العدالة الممكنة .

وقدعنى كذلك بتطهير الترع والمصارف بطريقة لاتحول دون سقى الزرع، بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير ،كذلك حول كثيراً من ترع الوجه البحرى من رى نيلى إلى صيفى ، وحفر فى الوجه القبلى ترعا وأقام جسوراً لرى الجزائر وأعالى الأحواض ، وأصلح أمر الرى بالفيوم بعد أن ساءت الحال بذلك الاقليم ، وأفاد من الترعة الابراهيمية فى رى مديرية المنيا وعنى بأعمال الحفر، وقدوضع للسخرة نظاما خفف كثيرا من وطأتها ، فهو علاوة على تخصيصه مبالغ كبيرة بالميزانية لمعظم عمليات النظارة فانه أتاح فى الأحوال التى يلجأ فيها للسخرة (العونة) قبول بدل نقدى بلغ مجموعه فى أول سنة ٣٦ ألف جنيه ، وقد تضاعف فى السنين التى تلتها ، وإذ لاحظ أن تطهير رياح البحيرة يحتاج إلى ٢٠ ألف رجل تجمع من سائر المديريات، ورأى أن تسخير الفلاحين فيه ظلم وإرهاق هذا إلى مالاحظه من انحطاط الزراعة فى مديرية البحيرة قدّم صاحب الترجمة مشروعا لاصلاح الرى والصرف بتركيب (وابورات) بفم ترعة الخطاطبة وتحسين (وابورات) المحمودية وتم بتنفيذ هذا المشروع الحصول على مليون ونصف مليون متر مكعب يوميا فى الخطاطبة ومثلها فى العطف ، وكانت تكاليف المليون الواحد ٢٤ جنيها ، وبهذا العمل بطلت السخرة فى تلك الجهة وعم الخير الاقليم كله .

وفى نظارة شريف باشا الثانية عام ١٨٨٣ أسندت نظارة الأشغال ثانية إلى على مبارك ، فواصل جهده لتوفير مياه الرى ، وكان مما قام به تعديل اتفاقه فى شأن (وابورات) ثم ترعه الخطاطبة ، إذ زاد مقدار الماء إلى نحو خمسة ملايين من الأمتار المكعبة ، واتخذ الديوان طريق المقاولة أساسا لتنفيذ كافة أعماله البنائية ، ومدت الترعة الابراهيمية إلى بنى سويف ، ووضعت الكراكات بها وبالترعة المحمودية والاسماعيلية وبحر مويس والشرقاوية والرياحات وغيرها ، وقد ترتب على احلال الكراكات محل الأنفار أن قلت السخرة إلى حد كبير ، وكانت شبحاً يقض مضجع الفلاح ويهدد حريته ومعاشه .

وأنشأ المترجم له ترعا كثيرة لايصال الماء إلى الأراضى البعيدة ، وحول بعض الترع من نيلية إلى صيفية ، ونقل الجسور وأقام القناطر وعمل السحارات مما كان من أثره تضاعف محصول البلاد ، فحبب بذلك أرض مصر الطيبة إلى فلاحها الذى استقر بها بعد أن كان يفر هربا من أعبائها — وقد كان من أثر جهوده وإصلاحاته إن تضاعف وزادت الأراضى المستصلحة بأيسر التكليف فلم يتجاوز ماخص الفدان

فى المتوسط عشرة قروش . ولم يقصر صاحب الترجمة جهوده على إصلاح طرق الرى والصرف فحسب ، بل نراه يوجـــه عنايته إلى الهندسة المدنية فى مختلف نواحيها ، فانه علاوة على مابذله لاصلاح العاصمة فقد قام بتنظيم الاسكندرية وتدبير مرافقها من ماء وإنارة وشق الشوارع وتيسير لاقامة المبـــانى والعمارات الكبيرة والمتنزهات بها ، وبعبارة أخرى نقول إن كل الاصلاحات التى نسبت إلى اسماعيل من معالم الحضارة والمدنية بالبلاد شرعها ونظمها وقام بها فى الحقيقة ذلك الفلاح على مبارك الذى اثبت عن جدارة ذكاء المصرى وصلاحية الفلاح إذا تعلم للنهوض بأعظم الأعمال .

ولم تكن العناية بالعاصمتين لتصرف رجل الإصلاح عن العناية بالأقاليم فنراه يوليها الكثير من اهتمامه وحسبنا أن نثبت ما سجله بقلمه فى حياته حين يقول :

« ولم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الإدارة والقضاء والضبط ونحو ذلك . وكان الموجود منها مبنياً بالطوب النيء أو الدبش على غير نظام وكانت الحبوس[1] حواصل مظلمة لا يدخلها النور إلا قليلا . وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها

---

(١) السجون .

كالأمتعة ، وداخلها يختنق بمجرد استنشاق هوائها . فعمل ديوان الأشغال التصميمات اللازمة وشرع فى بنائها على اسبتاليات داعية إلى الصحة بل كان بعضها محل ورشة ونحوها . وأكثرها متهدم والسليم منها كمربط البهائم ، فعملت تصميمات لتلك الأعمال على حسب أهمية كل مديرية بالكبر أو الصغر ، وتدرجت الأعمال على السنين ، فعملت اسبتالياتى المنصورة والغربية فى تلك السنة . وكذا الذبح كان فى الفضاء وجارياً على غير قانون ومنافع الحكومة منه قليله فبنى مذبح المنصورة والغربية ، وجعلت تلك المبانى أنموذجاً لما يبنى فى سائر المديريات وبنيت شون وقراقولات للعساكر وغير ذلك ... » .

علي مبارك

المصلح الاجتماعي

لم يقصر على مبارك جهوده على محاربة الجهل بما بذله من اهتمام بالغ لنشر التعليم ، سواء بتعميم المدارس والمعاهد المختلفة فى طول البلاد وعرضها ، أو بإنشاء دار الكتب التى جمع فيها شتات المراجع والمخطوطات التى كانت مبعثرة فى المعاهد ولدى نظار الأوقاف ، أو بما بذله بشخصه من نشاط فى تأليف العدد الوفير من الكتب العلميه والفنية والتاريخية بل رأيناه إلى جانب هذا يعمل فى مختلف ميادين الاصلاح الاجتماعي .

رأيناه يقدم للفلاح أجل خدمة اجتماعية بإلغاء نظام السخرة إلى حد بعيد بما قرره من اسناد عملية إقامة جسور النيل إلى المقاولين بتكاليف تحملها الخزانة العامة على أن تسترد فى شكل رسوم من أصحاب الأطيان .

رأيناه يقوم بأول عمل اصلاحى فى السجون إذا استبدل المبانى الحديثة بالأقبية والكهوف المظلمة التى لا تصل إليها الشمس ولا يتخللها

الهواء والتى كانت تقضى على السجين قبل أن تنقضى مدة عقوبته .

رأيناه يسارع إلى بناء دور للمستشفيات بدلا من تلك المباءات القذرة واسطبلات الخيل التى كان المرضى يحشرون فيها حشرا ليعجل بوفاتهم حتى لا يطول أمد علاجهم .

رأيناه يعمل على توفير الرزق ويزيد من غلة الفلاح بما أقامه من مشروعات كبرى للرى ، كاصلاح القناطر ، وشق الترع الكبرى ، واكثار المصارف ودق المضخات ، هذا إلى عنايته بمد الخطوط الحديدية وتنظيمها بما ييسر نقل الأفراد والحاصلات ويعود بالنفع الكبير على كافة المواطنين .

ورأيناه مع ما تقدم يعنى بالتنظيم ، فيشق الشوارع ويغرس الأشجار على جوانبها ، ويقيم المتنزهات المختلفة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح ، مما يجعلنا نعتقد عن يقين أن الرجل لم يكن أبا التعليم فى مصر فحسب ، بل هو لما قام به من جهود فى محاربة الفقر والمرض والجهل خليق بأن يسمى أبا الاصلاح الاجتماعى دون مغالاة أو مبالغة .

على مبارك

والثورة العرابية

سجل على مبارك فيما ذكره بالخطط التوفيقية عرضاً للثورة العرابية فيه ما يفهم البعض منه أنه مشايعة لتوفيق . ونحن وإن كنا لا ننكر أن دور صاحب الترجمة فى ميدان السياسة كان ضئيلا إذا قيس بمآثره الكبرى فى ميدانى الإصلاح والتعمير ،كمؤسس لصرح نهضة مصر التعليمية ،ومنشىء لأكثر معالمها العمرانية ، إلا أن المتقصى لحياة الرجل ، السابر لغور شخصيته ، يدرك عن يقين أن الرجل كان وطنياً ، ووطنياً من الطراز الأول ، فلم يكن على مبارك باعتراف المؤرخين من مصريين وأجانب ، لم يكن فى وقت من الأوقات خصما للثورة العرابية ولا مشايعاً لأعدائها ، فهو وإن لم يناصرها جهراً فالثابت أنه كان يعطف عليها ، وحسبنا أن نورد فى ذلك بعض آراء المؤرخين مدعمة بالوثائق والأدلة القاطعة .

يحدثنا جورج يانج فيما كتبه فى « تاريخ مصر فى عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل » أنه حين تحزبت الأمور وبدأ الصراع يحتدم بين

الإنجليز الذين بعثوا بأسطولهم إلى الاسكندرية وبين العرابيين ، اجتمع صفوة رجالات مصر فى العاصمة فى السابع عشر من يولية عام ١٨٨٢ فى شكل جمعية عمومية ضمت أربعمائة عضو منهم الأمراء الموجودون بالعاصمة ، وشيخ الإسلام ، وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار وكبار العلماء ، والرؤساء الروحانيون ، والنواب ، ووكلاء الدواوين والمديرون ، والقضاة ، والتجار ، والأعيان ، وأجمعوا على مواصلة الاستعداد الحربى ، ومطالبة النظار بالحضور للعاصمة ، وشكلوا لجنة من ستة هم : على مبارك ومحمد رؤوف عن الذوات ، وأحمد السيوفى والشيخ سعيد الشماخى عن التجار ، والشيخ نايل والشيخ كيوه عن العلماء ، وقد سافرت هذه اللجنة إلى الإسكندرية لإبلاغ الخديوى قراراتها .

وانتخاب الجمعية العمومية التى كانت تمثل رأى ممثلى طوائف الشعب ، انتخابها على مبارك على رأس وفدها إلى توفيق ، يدلنا فى وضوح على أن الرجل كان محل ثقة الشعب ، كما أن انخراطه فى سلك هذه الجمعية التى أصدرت قرارها باستنكار العدوان الإنجليزى ، وبتأييد مطالب الشعب ، كل هذا يدل على أن ذلك الفلاح الذى نبت من صميم الشعب لم يكن ليتخلف عن ركب الشعب فى ثورته على الظلم ، وكفاحه ضد الاستعمار .

قام على مبارك على رأس وفد الجمعيـــة العمومية إلى الاسكندرية سعياً لإصلاح ذات البين بين توفيق وعرابى وبقى

بالاسكندرية حيث أبرق إلى عرابى بما كان من قيامه بمهمته[1] واقترح عليه تأليف لجنة ممن ينتدبهم عرابى من رؤساء الجند، تجتمع مع لجنة أخرى من على مبارك وبعض الذوات للنظر فى الأحوال الحاضرة بقصد الوصول إلى نتيجة ترضى الجميع[2] وكان هذا الاقتراح آتياً من جانب الخديوى والوزراء — كما يفهم من خطاب على مبارك الذى بعث به إلى عرابى فى كفر الدوار .

وقد فهم عرابى من برقية على مبارك أنها تمهيد لانحيازه إلى جانب الخديوى فرفض هذا الاقتراح، وأرسل إليه برقية بذلك مسوغاً رفضه بأنه لا حق له فى تأليف لجنة بعد قرار الجمعية العمومية[3] وأذاع منشوراً أرسله إلى المديريات والدواوين كافة بإعلان انضمام الخديوى إلى جانب الإنجليز وخلع طاعته، وختمه بقوله : « وها نحن بجيشنا المظفر المنصور فى مراكز الحرب قد بعنا أنفسنا فى حياة بلادنا وحفظها من الأعداء، لا يردنا عن ذلك إلا الظفر والنصر، أو ارتحال العدو من مياه الاسكندرية بأسطوله ورجاله، وإلا فإننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لأحد وفينا روح يتنفس، والله يؤيد بنصره من يشاء ... » .

---

(١) « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » لعبد الرحمن الرافعى .
(٢) الوقائع المصرية عدد ٣١ يولية سنة ١٨٨٢ .
(٣) » » » » » » » .



البطل أحمد عرابى بين ضباط الثورة الأحرار

على مبارك

فيما بعد الثورة العرابية

وفى عام ١٨٨٣ أى عقب الاحتلال ألف شريف باشا وزارته الرابعة واشترك فيها صاحب الترجمة كناظر للأشغال ثم ما لبث أن استقال فى يناير سنة ١٨٨٤ متضامناً مع زملاءه أعضاء الوزارة الشريفية احتجاجاً على إخلاء السودان ، وهو عمل يسجل لصاحب الترجمة دليلا على صدق وطنيته .

وفى يونية عام ١٨٨٨ تولى رياض باشا الوزارة فاشترك على مبارك فى عضويتها كناظر للمعارف ، وفى تلك الآونة ظهر كتابه الخالد الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة ويقع فى عشرين مجلداً ، وهى شاملة لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى مختلف عصورها القديمة والحديثة وفيه وصف لمدن مصر وقراها .

ومن عيون الكتب التى أخرجها صاحب الترجمة علاوة على « الخطط التوفيقية » مؤلفاته « علم الدين » فى أربعة أجزاء وهو قصة تدور أحداثها حول شخصيتين رئيسيتين : الأولى شخصية عالم مصرى

ازهرى يسمى علم الدين ، والثانية شخصية رجل انجليزى وفد إلى مصر وتعلم العربية ، وتقع حوادث القصة فى مصر وأوروبا وقد ضمنها المؤلف معلومات قيمة فى العلوم والفنون والملح والنوادر والبحوث الاجتماعية والمسامرات ومن كتبه أيضاً « تذكرة المهندسين » و « تبصرة الراغبين » و « تقريب الهندسة » و « طريق الهجاء والتمرين » ويقع فى جزئين ، و « تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام » و « المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى » و « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » و « آثار الإسلام فى المدنية والعمران » و « الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان » وقد اشترك فى ترجمة كتاب « تاريخ العرب » لسديو ، هذا إلى ما كتبه من مقالات وبحوث عديدة فى مجلة روضة المدارس .





حبيب واسماعيل ولدا علي مبارك

سراج ينطفيء

وقد ظل على مبارك ناظراً للمعارف ينشر التعليم ويسهر على تنظيمه طبقاً للائحة التى وضعها ، عاملا على الإكثار من المدارس المختلفة إلى أن استقالت نظارة رياض عام ١٨٩١ ،فعاد إلى بلده لتفقد أطيانه وإصلاحها ، وهناك مرض بداء المثانة فعاد إلى القاهرة ، ثم استبد به المرض حتى لقى ربه فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٨٩٣ بمنزله بالحلمية ، وبهذا خبت تلك الشعلة الوهاجة ، وانطفأ ذلك السراج الذى ظل نوره يشع قرابة أربعين سنة ، والذى لا يزال وميضه يضىء البلاد لما خلفه من آثار خالدة لن تمحوها يد الحدثين .

ولا يزال ولدا على مبارك « حبيب » و « اسماعيل » أحياء بيننا وقد تجاوزا السبعين وكانا يعيشان إلى الأمس القريب من معاش ضئيل بعد أن ضاعت الأطيان التى ورثاها عن والدهما العظيم ولكن حكومة الثورة المقسطة لم تشأ أن يستبد الضيق بولدى باعث النهضة فأصدرت أخيراً قراراً برفع معاشهما ، ورتبت لهما مع المعاش إعانة شهرية من وزارتى الأوقاف والشؤون الاجتماعية ، تقديراً لوالدهما العظيم واعترافاً منها بفضله وبلائه المشهود فى خدمة وطنه وما خلفه من آثار ستظل خالدة على مر السنين .

طرائف ومفارقات

عن حياة التلاميذ والمعلمين

قبل إصلاحات على مبارك

• كانت مدرسة قصر العينى حين أنشئت فى سنة ١٨٢٥ مخصصة لأبناء من كانوا فى خدمة محمد على، وقد بدأت بقبول ٥٠٠ طفل من الشركس والأكراد والأرناؤوط والأرمن والأروام، وأجيز للمسيحيين والأوروبيين أن يلتحقوا بها، وفى عام ١٨٣٣ زيد عدد التلاميذ إلى ١٢٠٠ بينهم مائتين فقط من المصريين.

• كان التعليم فى مدارس العاصمة داخليا، وإقامة التلاميذ بالمدرسة إجبارية، ولم يبدأ بالنظام الخارجى إلا فى السنتين الأخيرتين من عهد محمد على.

• كان النظام بالمدارس عسكريا. وكان التلاميذ يقسمون إلى أورط وبلوكات برتب عسكرية، كأمباشى وجاويش وباشجاويش وكانوا يمنحون مكافآت تبدأ من ثمانية قروش للمبتدىء فى أول سنة للتعليم الابتدائى إلى مائة قرش كحد أقصى لطالب المهندسخانة.

• كان الطعام الذى يقدم لتلاميذ التعليم الابتدائى والتجهيزى محصوراً فى العدس والفول ، وكانوا يتناولونه على طبلية توضع عليها « قروانتان » لكل عشرة تلاميذ ، وكانت ملاعقهم من الخشب أما تلاميذ التعليم الخصوصى فكانوا يتناولون طعامهم على موائد وفى أطباق وأقداح من الصفيح ، مع ملاعق وشوك وسكاكين وفوط وكان طعامهم من الخضر والأرز واللحم .

• كان تلاميذ التعليم الابتدائى ينامون على حصر من الحلفاء تفرش على الأرض مع وسائد وأحرمة من الصوف كغطاء ، أما الأسرّة الحديدية فلم يسمح بها إلا لطلبة التجهيزى والخصوصى .

• كان زى التلاميذ موحداً ، وكان فى التعليم الابتدائى يتكون من جلباب وزعبوط أو عرى من الصوف ، وينتعلون المراكيب ويغطون رؤوسهم بالطرابيش ، وفى المدارس التجهيزية والخصوصية كان الزى بدلة مكونة من عنترى أو صديرى وسروال وحزام ، وهى فى الصيف من البفتة وفى الشتاء من الجوخ .

• قص الشعر والاستحمام إجباريان ، وكان الشعر يقص أسبوعيا بواسطة حلاق المدرسة ، وكانت التعليمات تقضى بضرب الحلاق إذا أهمل النظافة ، أما الاستحمام فكان فى الحمامات العامة (حمامات السوق)

بإشراف المدرسة وكان يتم مرة كل ثمانية أيام ، وقد سمح بعد ذلك بأن يكون مرة كل أسبوعين .

• كانت المدارس تقوم بختان تلاميذها فى حفلات موسيقية يغنى فيها المطربون وترقص فيها الراقصات ، وتتحمل الحكومة نفقات هذه الحفلات التى تقام بإشرافها ، وكان يصرف لمن يختن أطعمة دسمة من الطيور واللحوم على حساب الحكومة .

• كانت الدراسة أشبه بالتجنيد ، وكثيرا ما تهرب الأهلون من الدرس بقطع أصابع أولادهم أو سمل عيونهم ، إلا أن هذا لم يستمر طويلا وبدأ الأهلون يألفون التعليم تدريجيا .

• إذا فر تلميذ من مدرسته تبعته الشرطة للقبض عليه ، فإن لم تجده قبضت على أخيه أو أى فرد من ذويه وألقته فى السجن رهينه حتى يسلم التلميذ الفار نفسه، وكانت عقوبة من يفر ضربه من مائة إلى مائتين وخمسين (زخة) أمام الطابور ، وفى بعض الاحيان كان التلميذ يقيد بجنزير من الحديد لمدة شهر ، كذلك كان الضرب عقوبة من يتزوج من التلاميذ دون أن يحصل على إذن بذلك .

• من العقوبات المقررة إلباس التلميذ جاكته مقلوبة أو حبسه بغرفة مظلمة ، والحرمان من الأدام، والضرب بالكرباج ، وقد جعل الحد الأقصى ٢٥ كرباجا .

• نص البند الثالث من لائحة مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٣٦ على جلد الطالب ٢٥ جلدة عن كل ذنب يرتكبه ويجوز تجميع العقوبات وتوقيعها بالجلد فى ليلة واحدة . ويكون الضرب بواسطة ضارب الطبل على مشهد من الطلبة .

• كما نص البند السادس من لائحة المهندسخانة على أن « الطلبة المقملين ، والقذرين لا يسمح لهم بتناول الطعام مع النظاف ولا بمخالطتهم .

• كانت المرتبات الشهرية لهيئة التدريس والخدم بمكاتب المبتديان كالآتى :

الناظر ١٠٠ قرش ، الباشخوجة (كبير المدرسين) ٧٥ قرشا ، المعلم ٤٠ الكاتب ٦٠ قرشا ، وكيل الخرج (العهدة) ٢٥ قرشا ، الحلاق والترزى ٣٠ قرشا الفراش ١٥ قرشا شهريا .

• إذا أهمل مساعد المدير فى عمله جاز حبسه ١٥ يوما ، كما يجوز حبس المعلم لنفس السبب أسبوعا .

وقد محا على مبارك باصلاحاته كافة هذه الأوضاع البالية ، وأخرج للبلاد لائحة للمدارس منعت الضرب كعقوبة ، ونهضت بالتعليم إلى ما يقرب من مستواه الحالى حفظا لكرامة العلم والمتعلمين ؟

التعليم فى عهد نظارة على مبارك

إحصاء عن معاهد العلم وطلبته

فى عهد على مبارك عام ١٨٨٩(١)

	عدد التلاميد	منهم مجانا
مدرسة الاسكندرية	٣٣٣	١١٥
« المنصورة	٢٠٧	٦٢
« المتديان	٣٨١	١٢٣
« تجهيزية الخديوية	٣٧٨	١٨٠
« المهندسخانة	٤٣	١٩
« الحقوق	٥١	٥
« دار العلوم	٥٧	٧
« الخديوية	٤٣	١٥
« الصنايع	٣٢٢	٢٦١
« التوفيقية تجهيزى	١٣٦	١٩
« التوفيقية ابتدائى	١٧٠	١٦
« التوفيقية خاص	١٦	٢
« الطب	١٥٠	٦٧
« الولادة	١٠	١٠
« أسوان	١٥	٤

(١) من التقرير الخامس الذى رفعه على مبارك للخديوى فى ١٨٨٩/١٢/٢٨ .

مكاتب الاوقاف

فى عهد على مبارك عام ١٨٨٩

	عدد التلاميذ	منهم مجانا
المدرسة السنية	٨٦	٧٣
مدرسة السيدة	١٣٩	٦٧
« شيخون	١٧٤	٧٢
« بولاق	١٠٣	٥٤
« الحبانية	٤٢	١٦
« العقادين	١١٤	٥٩
« النحاسين	١٥٢	٧٦
« الإمام	٧٢	٧٢
« رشيد	٦٣	٣٧

المكاتب الأهلية

	عدد التلاميذ	منهم مجانا
مكتب المنيا	٧١	١٠
« الفشن	٤١	١١
« بنى سويف	١٤٢	٣٤
« أسيوط	٩١	٢١
« الفيوم	٩٤	١٦
« الجيزة	٧٧	١٩
« السويس	١٣٢	٢٠
« طنطا	٢٠٦	٣٠
« شبين الكوم	٧٢	٢٢
« الزقازيق	١٧٣	٣١
« دمنهور	١١٦	٣٣
« دمياط	٧٣	١٤
« طوخ	٥١	٤٠
« قليوب	١١٠	٣٦
« القربية	٣٩٨	٦٢
« الجمالية	١٤٨	٣٢
« باب الشعرية	٨٢	٢٠
« عابدين	١٨٣	٧٠
« الحسينية	٨٠	٣٤
« مصر القديمة	٢٥	١٥
« سوهاج	٦٦	٢١

خريجو دار العلوم

فى عامى ١٨٨٨ – ١٨٨٩

إبان نظارة علي مبارك

الشيخ محمود أبو النصر مساعد الفقه فى مدرسة دار العلوم بماهية ٥ جنيهات .

الشيخ علي حامد	بالخديوية	بماهية	٤	جنيهات
« سيد الزهى	بمدرسة شيخون	«	٤	«
« محمد حفنى	« قنا	«	٤	«
« محمد العدوى	« بنى سويف	«	٤	«
« عبد الله الأنصارى	« الجيزة	بمكافأة	٤	«
« محمد غنيم	« النحاسية	«	٤	«

خريجو التوفيقية

إبراهيم درويش	بمدرسة شيخون	بماهية	٤	جنيهات
محمود وهبى	بالخديوية	«	٤	«
يوسف صبرى	بقليوب	«	٤	«
محمد سعيد	بالقربية	«	٤	«
عبد الحميد حمدى	بالتوفيقية	بمكافأة	٤	«
محمود عزت	تحت التمرين بالمالية	بإعانة	٣	«
إسماعيل علي	معلم خط أفرنكى بالخديوية	بماهية	٤	«

خاتمـــــة

وبعد ... فهذه قصة أبي التعليم ورائد الإصلاح على مبارك ، قصة الفلاح الذى بدأ حياته أجيرا مغموراً ، كان عليه أن يعيش كالسائمة يعيش على هذه الأرض يسيقها بعرقه حتى تطويه ، ويضرب فيها بفأسه ليحفر مكاناً يحتويه ، وكان عليه أن يسير فى تلك القافلة الطويلة المتراصة بين ملايين الكادحين من الفلاحين، وكان مفروضاً أن ينتهى كما ينتهون ، لولا ذلك الحافز الذى يودعه الله النفس الكبيرة لتقوم بالعمل الكبير ، حافز الكرامة الذى ملك على الفتى لبه فانطلق يتقصى أسباب الرفعة ، ومضى يكتنه أسرار العظمة ، يبحث عن ذلك الإكسير الذى يحيل العبد سيداً ، ويستحيل به الصعلوك حاكما ، حتى إذا كشفه فى العلم رأيناه يسارع إليه مسارعة الظمآن إلى موارد الماء ، مسترخصاً الصعاب، مستهيناً بالمتاعب والعقبات.

وهو إذ يتم مرحلة التحصيل نراه ينساب فى سهل الإنتاج انسياب النهر الفياض ، يغمر بسقيا قريحته أرض بلاده ، ينشر العلم الذى آمن بسحره ، فيحيل بفضل جهوده تلك الجحافل العارمة من الفلاحين المعدمين ، مواطنين أكفاء أقوياء ، تظلهم ألوية العمران خفاقة

ليعوض هذا البلد الأمين بعض ما أهدره الظلم وهدمه الطغيان من أمجاد .

هذه يا أخي العربي صفحة على مبارك قدمناها إليك كما سجلها التاريخ وهى كما رأيتها صفحة ناصعة ، صفحة نخار لمواطن عربى عاش حياته للعلم ، وإنى إذ أقدمها اليوم فإنما أقدمها للعلم . ذلك الساحر الذى يبنى الشعوب ويخلق الأجيال ، أقدمها للعلم لتكون صورة يترسمها الراغبون فيه ، ومثلا يحتذيه أولئك الظماء إلى مناهله وموارده ، نقدم حياة أبى التعليم وداعية الاصلاح إلى أبناء جمهوريتنا الفتية فى أعز الأيام عليها ، فى عيد العلم الذى ردت فيه حكومة الثورة المباركة لرائد العلم على مبارك اعتباره، ورفعت ذكره ومقداره فشملت بعنايتها ولديه وحفدته الاحياء ، وأزاحت بالأمس الستار عن تمثاله . واتخذت منه كعبة يلتف حولها رجال العلم وعلى رأسهم وزير العلم ليذكروا بالتعظيم والتمجيد فى أعياد العلم رائد العلم وبشير العلم فى عهد النور والعلم ...

مراجع الكتاب

المؤلفات :

الكتاب	المؤلف
الخطط التوفيقية	على مبارك باشا
الثورة العرابية واحتلال الإنجليز	عبدالرحمن الرافعى
تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل	جورج يانج
تاريخ مصر الحديثة	محمد عبد الرحيم مصطفى
تاريخ التعليم فى مصر	دكتور أحمد عزت عبد الكريم
تقويم النيل فى عصر اسماعيل	محمود سامى باشا
مصر القديمة .	جورجى زيدان

الدوريات .

الوقائع المصرية عدد ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

التقرير الخامس عن التعليم فى نهاية ١٨٧٩ لعلى مبارك باشا .

نشرة وزارة التربية والتعليم ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

الهلال مجموعة سنة ١٩٥٦ .

المصور مجموعة سنة ١٩٥٦ .

فهرس الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة

صواب الخطا

صفحة	سطر	الكلمة	صوابها	صفحة	سطر	الكلمة	صوابها
١	٩	وتنبع	وتبنع	٧٣	٧	ليس	لا
١٠	١٥	المترجم	المترجم له	٧٨	٦	صادفتنا	صادفنا
١١	١٣	ترى	نرى	٨٠	٩	المترجم	المترحم له
١٣	٣	قلتها	تليها	٨١	١٤	تنهض	تنهص
١٤	١٥	قيد	قيدا	٨٥	٣	المترجم	المترجم له
٤٠	١٤	يعرفه	عرف	٨٧	٣	موظفو	موظفي
٥٠	١٥	المترجم	المترحم له	٨٨	٦	المترجم	المترجم له
٥٧	٨	المترجم	المترجم له	٩٦	١٠	الفرج	الفرح

للمؤلف

مرجع القضاء فى تشريعات الأحوال الشخصية للأجانب .

(التشريع الفرنسى)

(بالاشتراك مع دكتور حسن الأشموني)

الموسوعة القانونية فى الشهر العقارى والتوثيق .

(بالاشتراك مع الأستاذين عز الدين زكى ويوسف ...)

تحت الطبع :

مرجع القضاء فى تشريعات الأحوال الشخصية للأجانب .

(التشريع اليونانى والسويسرى والبلجيكى والأموال فى الفرنسى)

الموسوعة القانونية للمبادئ والنصوص فى الشهر العقارى والتوثيق

حرية الفكر وأعلام الأحرار .

